الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٧ — ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 177

Lundi - 23 - 11 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٧٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٩ رمضان سنة ١٣٥٥ — ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

صفحة		
١٩٠١	محمد فريد	أحمد حسن الزيات ... ...
١٩٠٣	القلب المسكين	الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
١٩٠٥	الوهم	الأستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني
١٩٠٧	أثر البيئة في الأدبين العربي والانجليزي ...	الأستاذ فخري أبو السعود ...
١٩١٠	خطر الفاشستية على سلام العالم	باحث دبلوماسي كبير ... ...
١٩١٣	نظرية النبوة عند الفارابي	الدكتور ابراهيم بيومي مدكور
١٩١٦	نقد ابن أبي عتيق ...	الأستاذ خليل هنداوي ... ...
١٩١٨	في الحياة	الأستاذ السيد محمد زيادة ... ...
١٩٢٠	بغير عنوان	الأستاذ علي الطنطاوي ...
١٩٢١	إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب	الأستاذ محمد زروق ... ...
١٩٢٥	الفصل في نبوة المتنبي	الأستاذ عبد المتعال الصعيدي
١٩٢٨	تاريخ العرب الأدبي ...	الأستاذ رينولد نيكلسون ...
١٩٣١	هكذا قال زرادشت ...	تأليف نيتشه وترجمة الأستاذ فارس
١٩٣٣	على شواطئ البسفور	الأستاذ محمد بهجة الأثري ...
١٩٣٤	مناجاة زهرة (قصيدة)	أحمد فتحي مرسي ... ...
١٩٣٥	تذكرة سفر من طنطا إلى سقر (قصة) ...	الأستاذ ابراهيم جلال بك ...
١٩٣٧	أوجين أونيل الفائز بجائزة نوبل للآداب	
١٩٣٧	جائزة نوبل للعلوم الطبيعية والكيمياء . وفاة شاعر مجري كبير	
١٩٣٨	في الأكاديمية الفرنسية . أنباء الزمن في أخبار اليمن ...	
١٩٣٨	فكرة العصبية عند ابن خلدون	
١٩٣٩	التأليف والترجمة للمسرح	ناقد الرسالة الفني ... ...

زهرات على قبر

محمـــــد فريد

بمناسبة ذكراه السابعة عشرة



ما كان أحقَّنا ونحن نجني ثمرات الجهاد ، ونعقد أقواس النصر ، ونحيِّي بطولة الزعماء ، ونُحْيي ذكرى الشهداء ، أن نضع إكليلا من الزهر النديّ على قبر الشهيد الأول محمد فريد !

لقد استُشْهِدَ في مثل هذا الأسبوع الذي وقع فيه موافقة البرلمان على المعاهدة ،

واحتفال الشعب بذكرى الضحايا ، فكيف غفل اللسان الذاكر وذهل الفؤاد العروف عن تحية المجاهد الصابر والمضطهد المهاجر والصريع المحتسب ؟ وما أقلَّ التحية للذين نفروا لخلاص الوطن لايبتغون ثراء ولادَعة ، وهاجروا فى سبيل الحرية لايجدون مراغماً ولا سَعة ، ولفظوا أنفسهم فى منازح الغربة ومضاجع البؤس حسرة فحسرة !

هذه دورهم ، كان للعزة فى أفيائها مَرَاد ، وللنعمة فى أفنائها ربيع ، فتقوض فيها المجلس وانصرف عنها اللاجيء وتعاقب عليها مالك بعد مالك ! وهذه قبورهم ، تناوحت عليها سوافى الرياح فطمست الشاهد وأبهمت الأثر وتناهبها هالك بعد هالك ! وهذه ذكرياتهم ، ملأت المسامع وعمرت القلوب حيناً من الدهر ، ثم أوشكت اليوم لكنود الناس أن تغوص فى لجج النسيان والعَدم ! وهذه أرواحهم ، كانت فى المحن السود تباكرنا بالعزاء وتراوحنا بالأمل وتغادينا بالمعونة ، ثم أقبلت ساعةَ النصر تخفق فخورة مع العلم ، وتصفق مؤيدة مع البرلمان ، وتهتف مبتهجة مع الأمة ، ولكنها لم تسمع وا أسفاه مَن بادلها تحية برحمة ، وجازاها وفاء بدعاء !

إن الشريعة تنسخ الشريعة ، والفكرة تطرد الفكرة ، والجديد يخلف القديم ، ولكن الجهاد فى سبيل الوطن غاية لكل جيل فى طريقها خطوة ، وبناية لكل عامل فى إقامتها حجر ؛ والخطوة اللاحقة لا ترد الخطوة السابقة ، والحجر الأعلى لاينقض الحجر الأسفل . والمثُل العُليا من الرجال قليلة فى عهدنا الحديث ؛ فما أولانا أن نضن بهم على الفناء ، فننصب تماثيلهم فى كل ميدان ، وندرس تاريخهم فى كل معهد ، ونرفع ذكرهم فى كل مناسبة

***

واحسرتاه على حظ فريد من أمته ! حبس عليها ثروته ورضى بالجوع ، ورصد لها قوته وصبر على المرض ، وضحى لها أسرته وعاش على التشريد ، ثم كان نصيبه منها برًّا لا يسعف ، وتقديراً لا يدوم ، وذكراً لا يتصل ، وقبراً لا يعرف !

كان فريد — برد الله ثراه وخلد ذكراه — سليل مجد وربيب نعمة وحليف جاه ؛ وكان سبيله فى الحياة سبيل كل أمير وكل كبير : يغتصب ثروته من عرق العامل ، وقوته من دم الفقير ، ومسرته من دمع البائس ، وجبروته من ظلم الضعيف ؛ ولكنه تنكب طريق المترفين واتبع هادى الفطرة ، فدخل به فى سواد الشعب وقرنه فى أغلاله وشركه فى ذله ، فدفعته الجبلَّة الحرة إلى أن يتطوع لأنهاضه بجهده ، ويتبرع لانقاذه بماله ؛ ثم اتصل برسول الوطنية يومئذ مصطفى كامل ، فكان منه مكان أبى بكر من محمد ، ومصطفى النحاس من سعد ؛ رفع معه ألوية الجهاد على سواعد الشباب الفتية ، ثم خلَفه على تكاليف الدعوة من جهد وبذل وتضحية ، فاستمر ينفخ فيما يشبه الرماد ، ويصيح فيما يقارب الجماد ، حتى اشتد عليه أذى المحتلين وكيد المنافقين فهاجر ناجياً بحريته وفكرته ؛ ولاذ بالأستانة يبتغى بها متنفساً لآمال مصر ، ومضطرباً لعزائم الشباب ، فكان فى هذه المدينة ذات الأستار والأسرار والحفَر قبساً من الحق الساطع الصادع يبعث فى قلوب المصريين المهاجرين والطلاب الضوء والحرارة

كان يدعو شبابنا الوديع إلى الثقافة الحربية فى المعاهد العسكرية التركية استعداداً لليوم الموعود والحدث المنتظر ؛ وكانت الحرب الكبرى قد انفجرت دواهيها على العالم يومئذ ، فحاول أن يكون لمصر من أعقابها المجهولة مغنم . وكأنما دس عليه أهل الأفك ، أوعارضت أطماعُه أطماع الترك ، فائتمروا به ليحاكموه ، ففر خفية إلى برلين ؛ وهناك أراده الألمان على أن يكون وسيلة من وسائل الحرب السرية فى الشرق ، فأبى عليه خلقه الصريح وجوهره الحر أن يكون أداة ليعيش . وتفرق عنه الرفاق إلى موارد الرزق الممكنة ، وانقطع عنه المدد من مصر ومن غير مصر ، فعمل عمل الأجير ، وعاش عيش الفقير ، يتبلغ بما يمسك الرمق ، ويكتسى بمايستر الجسم ، ويأوى إلى غرفة فى بعض السطوح يكابد فيها المرض والفقر والوحدة والغربة ، حتى أدركه الموت البائس الخامل وهو فى غيابة برلين المقهورة الباكية ، ليس فيه إلا فم يهتف للحرية ، وقلب يخفق لمصر !

إن فريداً كان مثال الفكرة السليمة والوطنية القويمة والرجولة الكاملة والتضحية المؤمنة . بذل فى سبيل الوطن ، مابذل عثمان فى سبيل الدين ، ثم كانت عاقبة أمره أن مات كما مات عثمان شهيداً غير مفهوم ؛ ولكن الله جازى فريدا كما جازى عثمان : جعل اسمه للخلود وروحه للخلد !

احمد حسن الزيات

٤ ـ القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحبُ القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهى مقْبلة تتيمَّمنا حتى بغته ذلك فساوره القلق ، واعتراه ما يعترى المحب المهجور إذا فاجأه فى الطريق هاجره . أرأيت مرة عاشقاً جفاه الحبيب وامتنع عليه دهراً لا يراه ، وصارمه مدةً لا يكلمه ؛ فنزع نومه من ليله ، وراحته من نهاره ، ودنياه من يده ؛ وبلغ به ما بلغ من السُّقم والضَّنى ؛ ثم بينا هو يمشى إذ باغتهُ ذلك الحبيب منحدراً فى الطريق

إنك لو أبصرت حينئذ قلب هذا المسكين لرأيتـه على زلزلة من شدة الخفقان ، وكأنه فى ضرباته متلعْثمٌ يكرر كلمة واحدة : هى هى هى

ولو نفذت إلى حس هذا البائس لرأيته يشعر مثـل شعور المحْتَـضر أن هذه الدنيا قد نفته منها

ولو اطلعت على دمه فى عروقه لأبصرته مخذولاً يتراجع كأن الدمَ الآخر يطرده

إنها لحظة يرى فيها المهجور بعينيه أن كل شهواته فى خيبة ، فيردُّ عليـه الحبُّ مع كل شهوة نوعاً من الذل ، فيكون بازاء الحبيب كالمنهزم مائة مرة أمام الذى هزمه مائة مرة

لحظة لايشعر المسكين فيها من البغتة والتخاذل والاضطراب والخوف إلا أن روحه وثبتْ إلى رأسه ثم هوت فجأة إلى قدميه

* * *

غير أن صاحبنا نحن لم يكن مهجوراً من صاحبته ؛ ولـكن من عجائب الحب أنه يعمل أحياناً عملاً واحداً بالعـاطفتين المختلفتين ، إذ كان دائماً على حدود الاسراف مادام حبًّا ، فكل شيء فيه قريبٌ من ضده . والصدق فيه من ناحية مهيَّأ دائماً لأن يقابل بتهمة الـكذب من الناحية الأخرى ، واليقين مُمـدٌّ له الشك بالطبيعة ؛ والحب نفسـه قضاء على العدل ، فانه لا يخضع لقانون من القوانين ، والحبيب — مع أنه حبيب — يخافه عاشقه من أجل أنه حبيب

وقد يصفرُّ العاشق لمباغتة اللقاء كما يصفر لمباغتـة الهجر ، وهذه كانت حال صاحبنا عند ما رآها مقبلةً عليه ؛ وكان مع ذلك يخشى إلمـامها به توَقياً على نفسه من ظنون الناس ، وأ كثر ما يحسنه الناس هو أن يسيئوا الظن ؛ وهو رجل ذو شأن ضخم ومقالة السوء إلى مثله سريعة إذا رُؤى مع مثلها . وكأنها هى ألمت بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقِّر المتزمِّت ؛ فعدلت عن طريقها الينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى وما بيننا وبينها إلا خطوات . ورأيتها قد هيأت فى عينيها نظرة غاضبتنا بهـا ثم لم تلبث أن صالحتنا بأخرى

وكأنها ألقت لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب أهبته لدور ها ثم همَّت أن ترجع ، ثم عادت اليه فجعلت تكلِّمه وعيناها إلينا ، فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها : إنها نبيلة حتى فى سقوطها

ولا أدرى ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقى ، ولـكن هذا الرجل لم يظهر لى وقتئذ إلا كأنه تليفون معلق

* * *

كانت عيناها الى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان الى غيره ، ولا تُسارقه النظر بل تغالبه عليه مغالبة ؛ ورأيته كذلك قد ثبتت عيناه عليها فخيل الى أن هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة ؛ وكانت تُطارحه ويطارحها كلاما مخبوءاً تحت هذه النظرات وقد نسيا ما حولهما وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا التقيا فى بعض لحظات الروح السامية : أن هذا العالم العظيم لا يعمل إلا لاثنين فقط : هو وهى

وكان فمها الجميل لا يزال يُساقط ألفاظَه لرئيس الموسيقى ، وكأنها تسرُد له حكاية مروِيةً أو تعارض بحافظته كلاما تحفظه من كلام التمثيل أو الغناء ؛ فهى تتحدث وعيناها مفكـرتان شاخصتان ، فلم ينـكر الرجل هيئتها هـذه ؛ ولـكن كيف كانت عيناها ؟

لقد أرادت فى البدء أن تجمل قوةَ نظراتها كلاماً ، حتى لحسبت أن هذه النظرات الأولى تهتف من بعيد : أنتَ يا أنتَ

ثم بدا فى عينيها فتور الظمأ : ظمأ الحب التكبر المتمرد ، لأنه حب المرأة المشوقة ، ولأن له لذتين : إحداهما فى أن يبقى ظمأ الى حين . . .

ثم أرسـلت الألحاظ التى تتوهج أحياناً فوق كلام المرأة

الجميلة فى بعض حالاتها النفسية ، فتضرم فى كلامها شرارةً من الروح تظهر الكلام كأنه يحرق ويحترق . . .

ثم توجهت النظرات لأنها تصلها بالرجل الذى لا يشبه الرجالَ فلا يستوهب خضوعها ولا يشتريه ؛ والرجل كل الرجل عند مثل هذه المرأة هو الذى لا يشبه الباقين ممن تعرفهم ، فاذا أحبها فكأنما أحبها عذراء خفِرةً لم تُمس ، وكأنه من ذلك يصلها بماضيها وطهارتها وحيائها وما لا يمكن أن تتمثله إلا فى مثل حبه

ثم ذبَلَتْ عيناها الجميلتان ، وما هو ذبول عينى امرأة تنظر إلى محبها ؛ إنه هو استسلام فكرها لفكره ، أو عنادُ معنى فيها لمعنى فيه ، أو توكيد خاطرة تحتاج الى التوكيد ؛ ومرةً هو كقولها : لماذا ؟ وتارة هو كقولها : أفهمت ؟ وأحيانا ، وأحيانا هو انتهاء مقاومة

***

وتمت الحكاية المروية التى كانت تلقيها للتليفون .. فكرَّت راجعة الى المسرح بعد أن صاحت نظراتها مرة أخرى كما بدأت : أنت يا أنت ...

فقلت لصاحبنا : ويحك يا عدو نفسه ! لو اختار الشيطان عينين ساحرتين ينظر بهما اليك نظر الفتنة لما اختار إلا عينيها فى وجهها ، فى هيئتها ، فى موقفها ؛ وأراك مع هذا كمنتظر ما لا يوجد ولا يمكن أن يوجد ؛ وأراها معك فى حبها كالحيوان الأليف إذا طمع فى المستحيل

قال : وما هو المستحيل الذى يطمع فيه الحيوان الأليف ؟

قلت : ذلك حين يطمع فى أن تكون له حقوق على صاحبه فوق الألفة والمنفعة

قال : لقد أغمضتَ فى العبارة فبينْ لى شيئاً من البيان

قلت : هب كلبةً تألف صاحبها وتحبه فهى له ذليلة مطواع ، ثم يبلغ بها الحب أن تطمع فى أن يكون لها تمام الشرف ، فلا يقول صاحبها عنها هذه كلبتى ، بل يقول هذه زوجتى ...

قال : ويْ منك ، ويْ منك[1] ؛ لقد ضربتَ على رأس المسمار كما يقولون . هذا هو المستحيل الذى بينى وبينها ، هذا هو المثل . يا لفظ الحلوى ، يا لفظ الحلوى ! لو كررتك بلسانى ألف مرة ، فهل تضع فى لسانى طعمها ... ؟

قلت : خفِّض عليك يا صاحب القلب المسكين فلست أكثر من عاشق

قال : بل أنا مع هذه أكثر من عاشق ، لأن فى العاشق راغباً وفىَّ أنا راهب ، وفيه الجرىء وفىَّ المنكمش ، ويغترف الغُرفة من الشلاَّل المتحدِّر فيحسوها فيرتوى ، وأغترف أنا الغرفة بيدى ، وأبقيها فى يدى ، وأطمع أن تهْدِرَ فى يدى كالشلال . . . . أنا أكثر من عاشق ، فأنه يعشق لينتهى من ألم الجمال ، وأعشق أنا لأستمر فى هذا الألم

هذه هذه . العجيب ياصديقى أن خيال الانسان يلتقط صورا كثيرة من صور الجمال تجىء كما يتفق ، ولكنه يلتقط صورة واحدة بأتقان عجيب هى صورة الحب ؛ فهذه هذه

ألم أقل لك إن إبليس هنا فى غير حقيقته الأبليسية ولم تفهم عنى[2] ؟ فافهم الآن أننا إن كنا لا نرى الملائكة فانه ليخيل الينا أننا نراها فيمن نحبهم ؛ وما دام سر الحب يبدِّل الزمنَ والنفسَ ويأتى بأشياء من خارج الحياة ، فكل حقائق هذا الحب فى غير حقيقتها

هذه هذه . لا أطلب فى غيرها امرأةً أجملَ منها ، فهذا كالمستحيل ، ولكنى ألتمس فيها هى امرأةً أطهر منها ، وهذا كالمستحيل أيضاً . إنها أجمل جسم ، ولكن واأسفاه ! إنها أجمل جسم للمعانى التى يجب أن أبتعد عنها

***

وسكت صاحبنا إذ رفعتْ ستارة المسرح وظهرت هى مرة أخرى . ظهرت فى زينة لا غاية بعدها تمثل العروسَ ليلة جَلوتها . ألا ما أمرَّها سخرية منك أيتها المسكينة ! عروس ولكن لمن ؟

كانت تبرُق على المسرح كأنها كوكب درى نوره نورٌ وجمال وعواطف شعر

وأقبلت تمايل بجسم رخص لين مسترسل الأعطاف يتدفق الجمالُ والشباب فيه من أعلاه إلى أسفله

وأظهر وجهها حسناً وأبدى جسمها حسناً آخر فتم الحسن بالحسن

واقفة كالنائمة ، فالجوُّ جوُّ الأحلام ، وكان الحب يحلم ، وكان السرورَ يحلم

(١) أى عجب يتعجب من فطنته

(٢) مر هذا المعنى فى المقالة الثالثة

مهتزة كالموج فى الموج . هل خلقت روح البحر فى جسمها المترجرج فشىء يعلو وشىء يهبط وشىء يثور ويضطرب ؟

ثم دقت الموسيقى بألحانها المتكلمة ، ودقت أعضاء هذا الجسم بألحانها المتحركة ، وأحسسنا كأن روح الحديقة جالسة بيننا تنظر اليها وتتعجب . تتعجب من قوامها للغصن الحى ، ومن بدنها للزهر الحى ، ومن عطرها للنسيم الحى

أما صاحب القلب المسكين ؟

(يتبع) مصطفى صادق الرافعى

الوهم

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أكثر ما يقعد بالانسان عن الطلب ، أو يصده عن السعى أو يصرفه عن الأقدام ، وهم لا حقيقة ؛ وقل أن يتقدم الذى يطول تفكيره ومشاورته لنفسه ؛ ويندر أن يفوز بالطيبات فى هذه الدنيا إلا الجسور أو « الفاتك اللهج » كما يقول بشار ، أى الذى لا يتردد ولا يضيع الوقت والفرص فى الموازنات والمعادلات وحساب العواقب والمغبات

تكون مع المرأة التى تحبها ، فتحدثك نفسك أن تبثها ما تجد ، أو على الأقل أن تثنى على جمالها أو ذوقها فى اختيار ثيابها . فتتردد مخافة أن يسوء وقع ما تقول فى نفسها وأن تعد ذلك منك تسحباً واجتراء عليها ، فتحجم ، وتتمعض هى ، لأنك خيبت أملها فيك ورجاءها عندك . وقد لا تحب المرأة الرجل ، ولكنه لا يسوءها منه أن تعرف أنه يحبها ، ولا يثقل عليها أن يثنى بما يعلم وما يتخيل أيضاً ؛ والمرأة تنتظر من الرجل أن يشعر بجمالها وأنوثتها قبل أن يشعر بعقلها أو علمها أو أدبها أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى . وكثيراً ما تقرأ لى الفتيات ما يكتبن أو ينشدننى ما ينظمن ، حتى إذا فرغن من التلاوة تعمدت أن أهمل ما سمعت منهن وذهبت أصف لهن ما وقع فى نفسى من صوتهن وهيئتهن وهن يقرأن ، وكيف كان النسيم يعبث بذلاذل الثوب ويكشف عن سيقانهن البضة ، وكيف أن خصورهن كن يغرين بالتطويق ، وشفاههن وهى تتحرك وتلتقى وتفترق ، وتختلج من فرط التأثر بالمعانى المصورة فى الكلام ، تحمل على اشتهاء القبلات الطويلة ، ولا أراهن يغضبن لذلك أو يتجهمن ، أو حتى يتكلفن العبوس والقطوب ، بل تشرق وجوههن ويشيع فيها البشر ، وتومض عيونهن وميض الجذل والاغتباط والرضى ، وأنا أفعل ذلك لأسرهن وأشرح صدورهن ولأهرب من إبداء الرأى فى كلام لا أرى له قيمة أو وزناً فننتقل بسهولة إلى حديث آخر نخوض فيه ، وتطوى الورقات وتدس فى الحقائب ، ونحن نسح بالكلام ، ثم ينصرفن راضيات مسرورات شاكرات ، وأبقى أنا أو أذهب ، ولا أكون قد رددت نفسى على مكروهها

وقد جربت الناس فلم أجد ما يريح مثل الاجتراء عليهم . كنت فى بعض ما مر بى مضطراً إلى الاتصال فى عملى برجل سريع البادرة عظيم الغرور متقلب الرأى فلا راحة لانسان معه ، وآثرت الملاينة فى أول الأمر وقلت : أسايره خطوة أو خطوات لأجره باللباقة والكياسة إلى حيث أريد من حيث لا يشعر هو . فكان يفطن إلى حيلتى فى بعض الطريق فينبو فى الزمام ، فخطر لى أن المنطق والحجة لعلهما أجدى ، فصرت أجادله بالتى هى أحسن ولكن بالبرهان والبينة ، فكان يتململ ويتأفف ولا يكتم ضجره منى وكراهته للجاجتى ، فضاق صدرى يوماً وخرجت معه عن طورى — على ندرة ذلك جداً — ولم أستطع أن أملك زمام نفسى ، فأسمعته من رأيى فيه ما أعتقد أنه أوجع ما سمع فى حياته ، فما راعنى إلا استخذاؤه والا أنه أذعن ، وراح بعد ذلك يتقى أن يثير غضبى ويخشى بادرتى أشد الخوف . فاسترحت

وقد يظن القارئ أنى أشير بالتوقح على الناس وسوء الأدب معهم ، وما أريد شيئاً من هذا ، وإنما أقول إن احترامك لغيرك لا ينفى أو يمنع أن تحترم نفسك ؛ ومن احترام النفس أن تكون صريحاً وحازماً ، والصراحة والجرأة ليس معناهما قلة الأدب ، فأنك تستطيع أن تذهب فى الصراحة إلى أبعد مدى وأن تتحفظ مع ذلك بالأدب . ومتى عرف الناس فيك الصراحة وألفوا منك الشجاعة ، اقتنعوا بذلك ووطنوا أنفسهم عليه وأعفوك من كثير مما تكره

وقد قص على بعضهم حكاية شاب اتخذت منه زوجته دابة ، فهو لا يفعل إلا ما تأمر ، ولا يخرج أو يدخل أو يقوم أو يقعد أو يأكل أو يشرب إلا إذا أذنت له ، وقيل لى إنها هى التى تنتقى له ثيابه وتختار له ما يوائمها من قميص وربطة وحذاء إلى آخر ذلك . وتأمره فيصادق هذا ويخاصم أو يعادى ذاك ، ويصل فلاناً ويقاطع فلاناً ، فعجبت ! وسألت محدثى : وماذا

يخيفه منها ؟ أهو يخشى أن تأكله إذا اعترض أو أبى أو تمرد على هذا السلطان ؟ فهز محدثى رأسه ولم يستطع أن يذكر لى سبباً معقولاً . وما أزال إلى هذه الساعة عاجزاً عن تصور ما تستطيع هذه المرأة أن تصنع إذا انتقض زوجها على هذا الاستبداد ؟ هى وقفة واحدة يقفها الرجل فلا يسع امرأته إلا أن تلزم حدها وتترك له حقه فى نفسه . وهذه الوقفة لا تحتاج إلى ثورة ، ولا تتطلب أن تقوم قيامة البيت ، بل لعل الهدوء أحجى وضبط الأعصاب أجدى . وما أظن امرأة تكبر رجلاً يكون عنانه فى كفها الرخص ، ولاشك أنها لاتنفك تحتال لتخضعه من حيث لا يشعر ولا يدرى ، والرجل الرشيد يدرك ذلك ولا يخفى عليه أنها تدور من ورائه لتحمله على ما تريد فيلين لها ليرضيها ويسعدها بالشعور بالنجاح ويجعلها بذلك ألين فى يده من ناحية أخرى . وحياة الرجل والمرأة مناوشات مستمرة ، ولعلها أشبه شىء بالحرب التى تشنها العصابات المتحصنة فى رؤوس الجبال على الجيوش المنظمة . وقدرة الرجل وسطوته معترف بهما ، ولكن المرأة لا تقر لها الاقرار التام ولا تزال تختبئ وتطلق قذيفتها . وخير للرجل وأجلب لراحته أن يدع لها فرصاً كافية لاصابة الهدف ، فتسكن نفسها وترضى عن حالها ، وإلا دفعها إلى التمرد الصريح . ولكنه ينبغى أن يكون له وجود وكرامة ، وإلا خسر احترامها له . واحتفاظه بكرامته واستقلاله وحريته لا يكلفه إلا أن توقن هى أنه لا خير فى محاولة إخضاعه لها .

وقد زاولت التعليم عشر سنين فما أذكر أنى احتجت يوماً أن أعاقب تلميذا ، ولو تمردوا على لما وسعنى شىء فأنى واحد وهم كثر ، ولو انتقضوا على نظام المدرسة لما استطاعت أن تكرههم عليه ، ولكن التلميذ يتوهم البأس والشوكة والسطوة والقوة ، ويرهب ما يتوهم ، ويطول عهده بذلك فيتقرر فى نفسه . وقد كنت وأنا معلم لا أحجم عن مصارحة تلاميذى بأن سلطان المدرس خيالى ولا حقيقة له ، وأنهم لو شاءوا لتناولونى وقذفوا بى من النافذة ، وقذفوا بالمدرسين جميعا وبالناظر أيضاً ورائى ، وكنت أراهم يبتسمون لما يسمعون منى ، ثم يعودون الى ما ألفت منهم من حسن الأصغاء وشدة الحرص على النظام

وكبر ابنى وصار أطول منى قامة ، وأنا الآن كهل وهو شاب ، وقد توخيت فى تربيته أن أدعه حراً ، وأن أجعله يشعر باستقلاله ، ومع ذلك لا أراه يجترىء الاجتراء الذى أتوقعه وأريده ويسرنى أن أراه منه ، لأنه يهاب ذلك السلطان الذى درج على إكبارى والاقرار له منذ الصغر . فهو لا يزال طفلاً بالقياس إلىّ فيما أرى ، وإنه لكذلك إذا اعتبرنا التجربة والعلم وما إلى هذا ولكن وهم الأبوة ، أو سلطانها ، أو لا أدرى ماذا ، يصده حتى عما لا بأس منه ولا ضير ، ولا عيب فيه ، ولا خوف من الزجر عليه . وأنا أيضاً كنت طفلاً — كما لا أحتاج أن أقول — وكان هذا شأنى ، لأن للعادة سلطانها

ولو جرب الناس الشجاعة والأقدام لأدهشهم أن ما كانوا يخافونه أو يتقونه أو يتوقعونه ، لا وجود له ، وأنه لم يكن سوى وهم ليس إلاّ . وأكرر أنى لا أحض على تجاوز الحدود ، فليس من حسن الأدب أن يكون المرء جبانا أو ذليلاً ، ولا من سوئه أن يكون عارفا بحقوقه حريصاً عليها وجريئاً فى سعيه وصريحاً فى قوله ، أى مخلصاً لنفسه

ابراهيم عبد القادر المازنى

في الأدب المقارن

أثر البيئة
في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

طبائع الانسان ومواهبه متماثلة حيثما حل من بقاع الأرض، ومجتمعاته متشابهة الظواهر أينما قامت. تتشعب بين أفراد كل مجتمع إنساني عوامل التعاون والتنافس والتحاب والتباغض والمطامع والمخاوف، غير أن للبيئة أثرها في تشكيل المجتمع الانساني الذي تحيط به، بما تعرض أمام أبصاره وأذهانه من مناظر ومسائل تحجب عنه غيرها، وما تفرض عليه من أعمال يمارسها دون سواها، ويكون لهذا وذاك أثره البين في لغة المجتمع وأدبه، مقرونا إلى أثر الطبائع والمواهب التي تشترك فيها الأمم جمعاء

فللبيئة في أدب كل لغة ثلاثة آثار بعيدة المدى: فهي أولاً تؤثر في مبنى اللغة وأصواتها وألفاظها وتعابيرها وتشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها السائرة وحكمها المتواترة، فكل ذلك منتزع من طبيعة الاقليم؛ وهي ثانياً تؤثر في مهن المجتمع وعلومه وفنونه وعمرانه وينعكس كل ذلك في مرآة الأدب؛ وهي أخيراً تعرض دائماً أبداً أمام أنظار الأدباء وحواسهم مناظر طبيعية بذاتها، تسترعي انتباههم وتستجيش نفوسهم وتلهمهم كل ما تجود به قرائحهم في باب عظيم الخطر من أبواب الأدب هو باب الوصف الطبيعي

وأثر البيئة في الأدبين العربي والانجليزي واضح وضوحاً شديداً يكاد لروعته يخفي أثر الطبيعة الانسانية التي تشترك فيها الأمتان ويتفق عندها الأدبان، فأن تباين البيئتين تبايناً شديداً أدى إلى اختلاف اللغة والمهن والعمران والمناظر في المجتمعين، وأدى بالتالي إلى اختلاف أشكال الأدبين وصورهما ومواضيعهما وأساليبهما؛ ويمكن إيجاز التعبير عن الفرق بين الأدبين بالقول بأن أحدهما شب في بيئة صحراوية والآخر ترعرع في بيئة بحرية

نشأ العرب في البادية فجاءت لغتهم مشرقة الديباجة متينة البناء قوية التعبير غنية الاشتقاق منتظمة أوزان الشعر متعددتها وحفلت بأسماء ظواهر الطبيعة البرية وحالاتها، وأسماء حيوان البادية وأطوار حياته، واشتقت تشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها من القمر والنجوم والكثيب والقطا، والمُنْبتّ الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وورود الماء بماء أكيس، وإلقاء الحبل على الغارب. ولعدم ملاءمة البادية لغير الأدب من الفنون عظمت مكانته بينهم

واشتغل العرب في البادية بالتجارة ينقلونها بين الشرق والغرب، فامتلأت لغتهم بمصطلحات التجارة بعضها عربي وبعضها منقول عن الأمم التي بادلوها التجارة، وامتلأ أدبهم بالتشبيهات المنتزعة من أحوال التجارة: فالقرآن الكريم يكرر في غير موضع تشبيه الخير والشر بالنجدين، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم؛ وعنترة يقول:

حصاني كان دلال المنايا ... فخاض غمارها وشرى وباعا

وبثت حياة البادية في العرب صفات الحمية والشجاعة والحرية والأنفة أن يدينوا لملك، وظهر أثر كل ذلك جلياً في أدبهم؛ وأشهر أمثلة ذلك معلقة عمرو بن كلثوم، فهي ديوان العرب في الحماسة؛ وأدى إباؤهم ودوام انتجاعهم الكلأ إلى استمرار المناوشات والوقائع بين قبائلهم، وانعكس ذلك في مفاخراتهم ومنافراتهم نثراً وشعراً

وهذه الصفات الشماء التي تلازم حياة التبدي جعلت العرب ينظرون شزرا إلى الزراعة والصناعة اللتين لم يكن لهما مجال في البادية، ويحتقرون الزراع والصناع الذين تسترقهم الأرض وتستعبدهم المادة، ولا يرون الشرف والعزة إلا في رعي الأبل والتجارة والقتال. فالأخطل يعير بني النجار بمساحيهم، وآخر يفاخر غريمه فيقول:

لحا الله ألأمنا نسبا — وأجدرنا أن ينفخ الكير خاله —
يصوغ الشنوف والقروط بيثربا

والحق أن الشعر الجاهلي مهما يكن قد داخله من تزييف يمثل الجانب الاجتماعي من حياة العرب في الجاهلية تمثيلاً رائعاً؛ ولا يمكن تصور حالة العرب في ذلك العهد إلا على

ما وصفت فى أشعار طرفة ومهلهل وأمثالهما

أما مناظر البادية الطبيعية المتشابهة الشديدة الوطأة ، فيبدو أنها لم تُشرِب العرب من حبّ الطبيعة مقدار ما بثت فى نفوسهم من رهبتها والحرص على اتقائها ، ولم تلهمهم من أشعار فى وصف محاسنها قدر ما أوحت اليهم من أشعار فى التأمل فى أحوالها والاستعبار والخشوع ، فلا غرو لم تخرج الصحراء شعراء طبيعيين يصفون محاسن المناظر ، كتلك التى تحفل بها الألياذة والأوديسة ، وإنما أخرجت أنبياء وحكماء فى شتى عصورها

وتحضّر الشعب الانجليزى فى جزيرة تحيط بها البحار ، وتجرى فيها الأنهار ، وتتخللها البحيرات ، وتتوالى عليها الأمطار والثلوج والسحاب والضباب ، ويتعاقب فيها الصحو والدجن ، وتنتشر فى أرجائها الغابات والآجام ، وتتتابع فيها الربى والقيعان ، فامتلأت لغتهم بأوصاف البحر والغاب ، وأسماء ما أسكنوها من جان ، واشتُقت منهما تشبيهاتهم وأمثالهم ، فاستُعير الضباب لحالة الشك والابهام ، والسحاب للحزن والقلق ، وقالوا فى أمثالهم إن الوقت والمدّ لا ينتظران إنسانا ، وحلت السفينة من تخيلهم ما كان للجمل لدى العرب من منزلة : فبينما ترى حسان يشبّه تراقص الخمر فى إنائها بتهادى الناقة المسرعة فيقول :

بزجاجة رقصت بما فى قعرها رقص القلوص براكب مستعجل

يُشبّه ملتون « دليلة » وهى شاخصة فى عظم جرمها وتمام زينتها وعتادها الى « شمسون الجبار » لاختداعه عن سر قوته بالسفينة المنشورة الشراع

وامتلأت قلوب الانجليز بحب البحر ، وظهر أثر ذلك فى أدبهم فى كل العصور : فى روايات شكسبير كالعاصفة وتاجر البندقية ، وفى تواريخ أمراء البحر الانجليز ككتاب « وستورد هو ! » الذى سماه مؤلفه كنجزلى باسم البلدة التى أنجبت معظم أولئك البحارين الذين يسمون بأفذاذ ديفون ، وككتاب سوذى عن نلسون ، والروايات الخرافية عن البحارة الذين لاقوا الأهوال وطوفوا فى مسالك البحار ، أمثال روبنسون كروزو ، واسكندر سلكرك ، وجليفر ؛ وأوصافُ البحر وقصصُه تكون جانباً كبيراً مما يعرف بأدب الأطفال

ولم يشغف الانجليز بالبحر وحده ، بل بالماء حيث حل من البقاع ، وأياً اتخذ من الأشكال ، فهاموا حباً بالأنهار والبحيرات ، ونال اقليم البحيرات فى غرب انجلترا مكانة سامية فى قلوب شعراء الانجليزية ، واتخذه شعراء النهضة الرومانسية مستراداً ومقاماً ، وحفلت دواوينهم بأوصافه ومحاسنه ، فحل فى انجلترا محل جبال برناس التى كانت ترتادها آلهة الشعر فى بلاد اليونان

وحفل الأدب الانجليزى كذلك بذكر الغاب ووصفه فى مختلف أوقات العام ، واتخذ مسرحاً لروايتى « كما تشاء » و « حلم ليلة فى منتصف الصيف » لشكسبير ، وفى الأخيرة تمتزج الحقيقة بالخيال ، وتختلط الاناسىّ بعرائس الغاب وعفاريته ، وفى تلك العرائس المتخيلة نظمت أشعار كثيرة ، وفى تلك الغابات كان يعيش روبن هود وجماعته ذات الوقائع الممتعة ، وبالجملة بثت طبيعة بلاد الانجليز المتعددة المناظر والحالات أُلفةَ الطبيعة والشغف بها فى نفوس الانجليز ، فاحتلت من أدبهم موضعاً مكيناً

ولموقع الجزيرة وإحاطة البحار بها اشتغل الانجليز بالتجارة ، ينقلونها بين العالمين القديم والجديد ، وقد مارسوها بحراً على حين مارسها العرب براً ، فدخلت تعبيراتها وأوصافها فى أدبهم ؛ واشتغلوا بالزراعة لملاءمة الاقليم وحفل جانب من أدبهم بوصف سكان القرى والبلدان الريفية ، وحياتهم ومجتمعاتهم ، وكثر ذلك خاصة فى العصور الحديثة حين تقدم فن القصص وازداد التفات الأدباء إلى الحياة اليومية والطبقات الوسطى والدنيا . ومن خير أمثلة ذلك روايات جين أوستن وتوماس هاردى ؛ واشتغل الانجليز كذلك بالصناعة الكبيرة لوفرة المعادن فى بيئتهم ، فقام نوع من الأدب يدرس مشاكل الصناعة ويصور مجتمع الصناع ، وانصرف بعض الروائيين ، كأرنولد بنيت ، إلى وصف حياة الرأسماليين ، وبعضهم ، كتشارلز دكنز ، إلى درس أحوال العمال والمناداة بتحسينها

هكذا تأثر كلا الأدبين بالبيئة التى قام فيها ، فاختلفا لذلك مناحى ومواضيع وأشكالاً ؛ بيد أن البيئة التى تقدم ذكرها إن هى إلا البيئة المحلية المحض ، وهى على عظيم تأثيرها فى المجتمع والأدب قلما تنفرد بالتأثير فيهما ، بل تشاركها فى ذلك بيئة أوسع أطرافا هى البيئة العالمية ، أى العالم كله بما فيه من ظواهر

طبيعية وما يسكنه من أقوام ، فهيهات أن يعيش مجتمع فى بيئته المحليـة غير متأثر بالعالم الخارجى تأثراً قل أو كثر ، عن طريق التجارة والغارة والرحلة ، وذلك الأثر العالمى يعرض أمام أفراد المجتمع من الظواهر والمشاكل ما كانوا عنـه بنجوة ، ويُدخل فى لغتهم وأدبهم ما كانوا به جاهلين

تأثر الشعبان العربى والانجليزى بأحوال العالم الخارجى ، أى بالبيئة الكبرى ، ولكنهما اختلفا فى هذه البيئة كما اختلفا فى البيئة المحلية ، إذ تأثر كل منهما بما يليـه مباشرة من أجزاء تلك البيئة العالميـة : وما يلى بلاد العرب هو الأمم الشرقية من فرس وهند وروم شرقيين ومصريين ، ذات الحضارة الشرقية العتيدة والملكيات القديمة ؛ وما يلى الانجليز هو الأمم الغربيـة الوارثة لحضارة الأغريق والرومان ذوى التاريخ الحافل بالنظم الحكومية والآراء الحرة فى السياسـة والاجتماع ، وبذلك ازدادت صبغتا الأدب تبايناً

تأثر العرب بحضارة الأمم التى كانوا ينقلون متاجرها . ولا سيما الفرس والروم ، وكانت لهم بهؤلاء علاقات سياسـية ولأكابرهم إلى ملوكهم سفرات ، وإلى اشتغال قريش بتلك التجارة ومخالطتها تلك الأمم يرجع ذلك الرقى الأدبى والمـادى الذى بلغته قبيل الاسلام ، وظهورها على القبائل فى الثروة والجاه والشرف واللغة ، وإنجابها عظماء الرجال الذين على أيديهم توطدت دولة الاسلام ، فكانت مكة قبيـل الاسلام فى حال من التمدن وسط بين همجية البداوة ونعومة الحضارة

ولو استمر تأثر العرب بالبيئة الخارجية طبيعياً محدوداً هكذا لازدادوا رقياً وازدادت لغتهم بهاء وأدبهم ازدهاراً ؛ ولـكن التوسع الخارجى الذى أعقب نجاح المسلمين الحربى المفاجئ أوقف ذلك التأثر البطىء ، وأحدث انقلاباً تاماً فى مجرى الأمور ، فلم يعُد تأثر الأدب العربى بالعالم الخارجى مقصوراً على النقل التدريجى ، بل انتقل الأدب ذاته جملة من وطنه الأصلى وهجر بيئته الأولى إلى بيئة أو بيئات جديدة فى الشام والعراق ومصر والأندلس وغيرها ، والأدب العربى فى انتقاله هذا ومهاجرته هذه من وطن إلى وطن نسيج وحده بين آداب الأمم

وجد الأدب العربى نفسه فى بيئـة جديدة ، فى أراض مزروعة مثمرة ، وأمم محترفة مستقرة ، وبلدان عامرة متحضرة ، ذات علوم وصناعات ، فتأثر بهذه البيئة الجديدة فى ثلاث النواحى سالفة الذكر : فى مفردات اللغة وتعبيراتها التى ازدادت بالنقل والتعريب ، وفى المهن ومظاهر العمران ، وفى وصف مناظر الطبيعة الجديدة ، فكثر فى الأدب ذكر الرياض والأزهار

على أن تأثر الأدب فى الناحيتين الأولى والثالثة كان قليلاً نسبياً لغنى اللغة فى الاشتقاق الذى أغناها عن الامعان فى التعريب ، ومحافظة العرب التى نفَّرتهم من استعمال ألفاظ اللغات الأخرى وأخيلتها إلا ما جاء عفواً أو ضرورة ، وحرصهم على احتذاء أسلافهم حتى ظلوا يقلدونهم فى وصف البيـد والخيام والنؤى والعيس ، وهم يعيشون بين الأرياف والعواصم ، فقامت هذه التقليدات للمتقدمين فى الأدب العربى كالمتحجرات فى عالم الجيولوجيا : قد فقدت كل حياة ولم تعد إلا رموزاً للماضى

ولم يشغف العرب شغفاً حاراً بمظاهر الطبيعة التى صادفوها فى بيئتهم الجديدة ، وكأنَّ نفرتهم القـديمة من قسر الطبيعة لم تفارق نفوسهم ، وكأن كل ما كانوا يطمحون اليـه بعد أن طووا الأميال ضرباً فى فلوات الجزيرة وهواجرها ، ظلٌّ ظليل وماء سلسبيل وهواء بليل ، تريح الجسوم وترويها وترفه عنها بعد طول الكد ، فغص أدبهم الطبيعى بذكر راحة الجسم ولذات الحواس ، دون طويل تأمل فى محاسن الطبيعة واجتلاء لأسرارها وتقصٍّ للذكريات والآمال عندها ، وأجمعُ الأمثلة لذلك قول الشاعرة الأندلسية :

وقانا لفحـة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحـه فحنا علينا ... حنوَّ المرضعات على الفطيم
وأرشـفنا على ظمأ زلالاً ... ألذ من المدامة للنـديم
يصـد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ، ويأذن للنسيم

إنما كان أشد تأثر الأدب العربى فى بيئته الجديدة بالناحية الثانية ، ناحية العمران ، ناحية الحياة المستقرة فى البلدان ، المعتمدة على الزراعة والصناعة ، الخاضعة للملكية ، وهى عكس حياتهم فى البادية تماماً ، فانغمر الأدباء فى جو المدن ، واعتزلوا الطبيعة وتكأكأوا على بيوت الأمراء ، وتزاحموا على مجالس الطرب والشراب ، واستفرغوا جهدهم فى انتهاب فرص الحياة من جاه

ومال ورفاهية ولهو ، وتأثر الأدب بذلك : فلم يعد يتغنى بالنجدة والبأس والقناعة ، بل طاب له الاستظلال بسلطان الحاكمين ، يترنم بمدحهم بعد أن كان أمثال عمرو بن كلثوم يثورون على نيرهم ، وتفنن فى وصف مظاهر التحضر وضروب الترف واللهو فى المدن

أما الأدب الانجليزى ، فتأثر بالبيئة العالمية فى النواحى الثلاث — نواحى مبنى اللغة ومظاهر العمران ومناظر الطبيعة — تأثراً كبيراً : فاللغة الانجليزية تدين للغات الأجنبية ولا سيما اللاتينية بأكثر مفرداتها وطرق اشتقاقها وكثير من تعابيرها ومجازاتها ؛ والمجتمع الانجليزى تأثر بالمجتمع الايطالى فى عصر الأحياء ، وبالمجتمع الفرنسى فى عصر لويس الرابع عشر ؛ ولم يخلُ فى عصر من التأثر بحالة العمران فى أوربا ، إذ كانت الحضارة الأوربية الحديثة مشتركة بين شتى الأمم ؛ وباطلاع الانجليز على أوصاف الطبيعة فى الآداب الكلاسيكية ازدادوا شغفاً بمفاتن بلادهم ، وزادوا فوصفوا محاسن الطبيعة فى إيطاليا وبلاد اليونان وغيرها

تأثر الأدب الانجليزى بالبيئة العالمية فى شتى النواحى ، ولكنه لاستقراره فى وطنه الأول وبيئته المحلية جاء تأثره بالأولى بطيئاً محدوداً لم يطغ على خواصه المحلية ، بل ظلت للبيئة المحلية المكانة الأولى والآثار الواضحة فى الأدب ، ولم يزد الأثر الخارجى على أن أضاف إلى العناصر المحلية ما يناسبها ويخصبها من العناصر الأجنبية ، وكلما احتجن الأدب جانباً من تلك العناصر مثّلها ومزجها بنفسه وصبغها بصبغته الخاصة

فالأدبان العربى والانجليزى قد نشآ فى بيئتين طبيعيتين مختلفتين وترعرعا فى مجتمعين متباينين ، وتأثرا بعوامل عالمية مختلفة ، وهاجر أحدهما من بيئته الأولى إلى بيئة جديدة بينما ظل الآخر فى وطنه الأول ، فلاغرو أن يختلف الأدبان فى الصبغة والمناحى والأوضاع والأغراض والأخيلة ، اختلافاً يروع الناظر فيهما فيخيل إليه أن ليس هناك تشابه بينهما قط ، ولا وجه للموازنة والمقابلة ، ويكاد يخفى ما فيهما من تعبير مشترك عن شتى النوازع النفسية والظواهر الاجتماعية ، التى تتفق فيها الطباع الانسانية ، فى شتى المجتمعات ، ومختلف البيئات

فخرى أبو السعود

خطر الفاشستية

على سلام العالم

ومشكلة البحر الأبيض المتوسط

بقلم باحث دبلوماسى كبير

لم يبد خطر الفاشستية على سلام أوربا وسلام العالم كما يبدو اليوم ؛ ولقد كان رأينا دائماً أن الفاشستية وما تقوم عليه من مبادىء العنف ، وما يحدوها من الأطماع المضطرمة ، وما تؤكده بأعمالها وتصريحاتها من احتقار لمبادىء الحق والعدالة الدولية ، إنما هى مصدر دائم للشر والخطر على السلام ، وبخاصة على الأمم الضعيفة التى تدين بوجودها واستقلالها لمبدأ الحق الطبيعى لا للقوة الغاشمة ؛ بيد أن الفاشستية لم تبد من قبل بمثل هذه الجرأة المكشوفة ، وهذا التحدى الواضح ، وهذا التوثب لارتكاب العدوان والشر ، وهذا الاستخفاف بحقوق الشعوب ومصايرها كما تبدو اليوم

منذ أكثر من عام نظمت إيطاليا اعتداءها المثير على الحبشة ، واستطاعت لا بحرب شريفة مشروعة ، ولكن بوسائل همجية ممقوتة أن تقهر هذه الأمة المنكودة وأن تضمها لأملاكها ، وأن تقيم على أنقاض الحريات المغصوبة إمبراطورية استعمارية تصول بها اليوم ؛ وفى الصيف الماضى استطاعت الفاشستية الايطالية وحليفتها النازية الألمانية أن تضرما فى أسبانيا نار ثورة مضطرمة ، وما زالتا إلى اليوم تمدان العسكرية الثائرة بالسلاح وكل صنوف المعاونة ، وما زالت أسبانيا تتلظى فى جحيم الحرب الأهلية ، لأن الفاشستية والنازية تود كل منهما أن تحقق لنفسها ظفراً معنوياً يكون مظهره قيام حكومة طغيان فاشستية فى اسبانيا على أنقاض الجمهورية ، وظفراً مادياً يقوم بتحقيق بعض المصالح السياسية والعسكرية التى تطمح كل منهما إلى تحقيقها

وكما أن مسألة البحر الأبيض المتوسط كانت أثناء الاعتداء الايطالى على الحبشة مثار الخطر والاحتكاك المستمر بين إيطاليا وبريطانيا العظمى ، فكذلك تثير الحرب الأهلية الاسبانية

مسألة البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى ، وتثيرها بصورة أدق وأوسع نطاقاً وأشد خطراً ؛ وقد كانت الأزمة التي أثارتها الحرب الحبشية في هذا البحر محلية في نوع ما لأنها كانت تتعلق بشرقية فقط ، وتتعلق بالنزاع بين إيطاليا وبريطانيا على السيادة في هذه المياه ، ولكن الأزمة التي تثيرها اسبانيا اليوم أزمة عامة شاملة ، تتعلق بالتوازن في البحر الأبيض المتوسط كله ، وتدخل فيها فضلاً عن إيطاليا وبريطانيا العظمى ، فرنسا وألمانيا

وقد خطب السنيور موسوليني في ميلان أخيراً في سياسة إيطاليا العامة نحو المشاكل الأوربية المختلفة وكرر دعاوى إيطاليا القديمة على البحر الأبيض المتوسط ، ووصفه بأنه بحيرة رومانية ، وأنه يجب أن يكون في الواقع كذلك لولا أن بريطانيا تدعى فيه سيادة لايحق أن تكون لها ، ووجه الدعوة في خطابه إلى بريطانيا أن تتفاهم مع إيطاليا على قاعدة المساواة في الحقوق والمصالح ؛ لأن كون بريطانيا تتخذ من هذا البحر طريقاً لأملاكها فيما وراء البحار ، لا يجيز لها أن تدعى السيادة فيه والسيطرة على مياهه ؛ وقرن السنيور موسوليني خطابه السياسي كالعادة ببعض التلميحات والتهديدات المسرحية ، فأشار إلى عصبة الأمم بأنها حلم سخيف ، وسخر من مشروع نزع السلاح ونظرية السلامة الاجماعية ، وما إليها من مثل لتأييد السلام ؛ ولكن الحكومة البريطانية لم تلبث أن أجابت « الدوتشي » على مزاعمه ودعاويه ؛ فذكرت أولاً في خطاب العرش الذي افتتح به البرلمان البريطاني ، أن سياستها الدولية تقوم على تأييد عصبة الأمم وتدعيمها وإصلاحها لتتمكن من تأدية مهمتها ، وأنها ما زالت تؤمن بالسلامة الاجماعية كوسيلة لتأييد السلام والتفاهم بين الأمم ؛ وأما فيما يتعلق بالبحر الأبيض المتوسط ، فقد ذكرت الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيتها المستر ايدن في مجلس العموم ، أن بريطانيا العظمى تعتبر هذا البحر شرياناً من شرايين الامبراطورية ، وطريقاً حيوياً لتجارتها تدافع عنه بكل ما وسعت

* * *

ألقى السنيور موسوليني خطابه الرنان غداة الاتفاق الذي عقد أخيراً بين إيطاليا وألمانيا ، وكان من أهم نتائجه اعتراف ألمانيا بالامبراطورية الايطالية وسيادة ايطاليا على الحبشة ، واتفاق الدولتين على اتخاذ خطة سياسية مشتركة في أواسط أوربا وشرقيها ، وتحالفهما على مقاومة الخطر البلشفي الذي يزعج ألمانيا الهتلرية في كل لحظة ؛ واتفاقهما على احترام استقلال النمسا إلى حين ؛ ولم يكن هذا الاتفاق بين الدولتين الفاشستيتين مفاجأة في السياسة الدولية ؛ فمن المعروف أن إيطاليا وألمانيا تجمع بينهما روابط خاصة أهمها اتفاق الوسائل والخطط ، والاتحاد في كثير من المطامع والغايات ، ولا سيما المطامع الاستعمارية ؛ وقد كانت ألمانيا أول الدول المؤيدة لايطاليا يوم اعتدائها على الحبشة ، لأنها تجيش بمثل الأماني الامبراطورية التي تجيش بها إيطاليا ؛ هذا فضلاً عن اتحاد الدولتين في مناوأة عصبة الأمم ، وسياسة نزع السلاح ، وفي النزعة العسكرية ، والخطط السياسية المنيفة

والواقع أن المسألة الاستعمارية تلعب دوراً كبيراً في الأزمة الدولية الحاضرة ، وفي أزمة البحر الأبيض بنوع خاص ؛ فقد رأينا كيف بدأت هذه الأزمة وتفاقمت من جراء اعتداء إيطاليا على الحبشة ووقوف انكلترا في وجه السياسة الايطالية ، وحشدها الدول بواسطة عصبة الأمم لتوقيع العقوبات الاقتصادية ضد إيطاليا ؛ والآن وقد كلل اعتداء إيطاليا بالنجاح وفازت بامتلاك الحبشة ، فانها تتطلع إلى تحطيم المركز الممتاز الذي تستأثر به انكلترا في البحر الأبيض المتوسط لكي تأمن على مواصلاتها مع امبراطوريتها الافريقية ؛ ومن المحقق أن معاونة إيطاليا للجنرال فرانكو زعيم الثورة الأسبانية لها صلة كبيرة بهذا المشروع الذي تحلم به إيطاليا ؛ ذلك لأن قيام حكومة عسكرية فاشستية في أسبانيا موالية للسياسة الايطالية ، يهدد مركز انكلترا في جبل طارق وفي غرب البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه يعزز مركز إيطاليا ونفوذها في هذه المياه خصوصاً إذا ثبتت الأنباء القائلة بأن القوات الايطالية تحتل الآن جزيرة ميورقة كبرى جزر البليار . وألمانيا تؤيد إيطاليا في هذا الموقف ، وتعاون ثوار أسبانيا أيضاً ، لأنها ترى في قيام الفاشستية في أسبانيا تقوية للجبهة الفاشستية التي تمثلها مع إيطاليا وإضعافا لموقف الدول الديموقراطية : أعنى فرنسا وانكلترا في أوربا ، كما أنها ترى في ظفر الفاشستية هزيمة

لعدوتها روسيا السوفيتية التي تعاون الجبهة الجمهورية في أسبانيا وربمـا كانت ألمانيا إلى جانب ذلك ترى في التدخل في شؤون أسبانيا وغرب البحر الأبيض وسيلة لاثارة المسألة الاستعمارية التي تعلق عليها أهمية كبيرة

وقد امتازت خطط الدولتين الفاشستيتين في العام المنصرم بالاندفاع والتحدى ؛ وما زال السنيور موسوليني بالأخص يبرق ويتوعد في كل خطبه وتصريحاته ، وينوه بقوة جيوشــه واستعداداته وينذر أوروبا بالويل إذا لم تنزل عند أطماعه ومطالبه ؛ وما زالت انكلترا وهي التي يخصها « الدوتشي » بأكبر قسط من الوعيد والتحدى تقابل الموقف بالرزانة والاغضاء ، ماضية في تقوية تسليحاتها في نفس الوقت بكل ما وسعت ؛ كذلك نرى ألمـانيا الهتلرية تنحو في خططها السياسية هذا النحو فتنقض المواثيق والعهود متى شاءت ، وتلوح في كل فرصة باستعداداتها العسكرية ؛ وفرنسا التي هي محور هذه الضربات تتلقاها في هدوء وتحاول مع حليفتها القديمة انكلترا أن تذلل الصعاب والأزمات بالأساليب السياسية ، وهي ماضية أيضاً في مضاعفة استعداداتها العسكرية العظيمة

ومن المحقق أن الدول الغربية وعلى رأسها فرنسا وانكلترا ترغب في السلام كل الرغبة ، وتعمل على اتقاء خطر الحرب بكل ما وسعت ؛ كذلك لا ريب في أن الفاشستية لا تبدى مثل هذا الحرص في المحافظة على السلام واجتناب أخطار الحرب ؛ ولقد اندفعت إيطاليا والمانيا خلال هذا العام إلى إثارة عـدة أزمات دولية كانت كل منها تكفي لاضرام نار الحرب ، فنقض المـانيا لميثاق لوكارنو ومعاهدة الصلح ، وغزو إيطاليا للحبشة وحملاتها العنيفة على انكلترا ، وعلى عصبة الأمم ، وعملهما معاً على إضرام نار الحرب الأهلية في أسبانيا ، كل هـذه كانت وما تزال تثير كدراً في أفق السلام ، وقد كادت في أكثر من فرصة أن تغدو خطراً حقيقياً على السلام

وهذه النزعة الخطرة التي تندفع الفاشستية فيها دون تدبر للعواقب ترجع الى حالة نفسـية تستغلها الفاشستية ؛ فالدول الغربية التي خرجت من الحرب بأكبر قسط من الغنيمة ، والتي تبسط سلطانها على امبراطوريات استعمارية شاسعة ، وتستأثر بوفرة هائلة في المواد الأوليـــة ، تتمتع بمستوى مرتفع من الرخاء الاقتصادى ، ولها صناعات مزدهرة ، وتجارة خارجية عظيمة ، وهي تحرص على ذلك كله ، وتجانب الحرب ما استطاعت ، لأن الحرب نذير الخراب والبؤس الاقتصادى ؛ وهذا مثل انكلترا وفرنسا وبلجيكا ؛ فهي دول « راضية » لا تود بحالتها بديلا ، أما الدول الفاشستية ، أو بعبارة أخرى ايطاليا والمانيا ، فهما من الدول «غير الراضية» لأنهما تعانيان حالة من البؤس الاقتصادى ولا تحتكمان على مقادير كافية من المواد الأولية ، ولا تتمتعان بمقـدار مرضٍ من الرخاء ، فهما لذلك ساخطتان ، تحقدان على الدول «الراضية» ، وتودان تغيير هذه الحال والاستيلاء على بعض المستعمرات الغنية التي تكفل لهما الحصول على المواد الأولية ؛ وإذا كانت الفاشستية تقوم في الداخل على العنف ، فهي لا ترى أيضاً سوى العنف وسيلة لسياستها الخارجية ، وهي تندفع بلا تدبر للعواقب ، لأنها تعرف جيداً أن الدول « الراضية » أشد ما يكون زهداً في مقابلة العنف بالمنف ، وأنها تعمل جهدها لاتقاء خطر الحرب ؛ وقد نجحت الفاشستية في استغلال هذه الحالة ، وحققت لنفسها بالمنف ألواناً من الظفر ، في ميدان السياسة والحرب ، كغزو الحبشة ؛ ولا تزال تسرف في الوعيد كلمـا لاح لها أمل في التهويل والاستغلال

على أن الذي لا ريب فيه هو أن ألمانيا وإيطاليا مهما بلغتا اليوم من القوة لا تستطيعان الاضطلاع بحرب أوربية كبيرة ، فكلتاهما تفتقر الى المال والمواد الأولية ، وإن كانت غنية بالرجال والأساليب الفنية ؛ والحرب المعاصرة تقوم على المال والمادة كما تقوم على الفن والسواعد ؛ ومن ثم كان تلهف المانيا على استرداد مستعمراتها وهي أمنية تبدو مستحيلة التحقيق على الأقل في الوقت الحاضر ؛ ثم إن تيار الحوادث لا يستقر على حال ، فهاهي ذي الحرب الاسبانية تتطور في مصلحة الجمهوريين ، والثورة تدنو إلى الفشل ؛ وسيكون فشل الثورة الاسـبانية ضربة أليمة ولكن عادلة للفاشستية التي أثارتها ؛ والأحوال السياسية تتطور في أوربا الوسـطى تطوراً سريعاً ، ودول الانفاق الصغير تنظر بعـد خطبة الدوتشي في ميلان وما ورد فيها من إشارة إلى تعديل المعاهدات ، إلى السياسة الايطالية وغاياتها بمنتهى الريب ، بل إن الانفاق الذي عقد أخيراً

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٥ —

اعتنق الفارابى ، بعد الكندى ، نظرية أرسطو فى الأحلام وقال معه إنها أثر من آثار المخيلة ونتيجة من نتائجها . ولا بد أن يكون القارىء قد لاحظ فى التفاصيل والجزئيات تشابها واتصالاً أكثر من هذا بين رأى الفيلسوف العربى والفيلسوف اليونانى ؛ فأن الفارابى يعتد بالميول والعواطف ويثبت مالها من أثر فى تكوين الأحلام وتشكيلها . ويرى كذلك أن للطبائع والأمزجة دخلاً كبيراً فيها . وكل تلك أفكار رددها أرسطو من قبل

بيد أن مؤسس الليسيه يجهد نفسه دائماً فى أن يبعد عن مذهبه التفسيرات الدينية والتعليلات القائمة على قوى خفيـة وأسرار غامضة . ونزعته الواقعية تغلب عليه فى دراساته النفسية كما استولت عليه فى أبحاثه الطبيعية والاخلاقية . لهذا نراه يرفض أن تكون الرؤى وحياً من عند الله ، ولا يقبل مطلقاً التنبؤ بواسطة النوم . لأن الأحلام ليست مقصورة على طائفة دون أخرى ، وفى مقدور العامة والدهماء أن يدعوا التنبؤ بالغيب عن هـذا الطريق ، وهذا ما لا يسلم به أحد . وهنا يفارق الفارابى أستاذه ويقرر أن الانسان يستطيع بواسطة مخيلته الاتصال بالعالم العلوى واختراق حجب الغيب والوقوف على المكنون والخفى . ولكن يجدر بنا أن نعقب على هذا مسرعين بأن الفارابى وإن خالف أرسطو فأنما يخالفه فى نقطة محددة ؛ ذلك لأن الاتصال بالعقل الفعال عن طريق المخيلة لا يتم فى رأيه إلا لطائفـة ممتازة وجمع مختار ، وإذا كان الفارابى قد وفق لحل موضوع المقامات والرؤى فلم يبق أمامه إلا خطوة واحـدة لحل مشكلة النبوة . فان المخيلة متى تحررت من أعمال اليقظة المختلفـة استطاعت أثناء النوم أن تصعد إلى سماء النور والمعرفة . وإذن متى توفر لدى شخص مخيلة ممتازة تمت له نبوءات فى النهار مثل نبوءات الليل ، وأمكنه فى حال اليقظة أن يتصل بالعقل الفعال مثل اتصاله به أثناء النوم ، بل ربما كان ذلك على شكل أوضح وصورة أكمل . فالنبى فى رأى الفارابى بشر منح مخيـلة عظيمة تمكنه من الوقوف على الالهامات السماوية فى مختلف الظروف والأوقات

هذه هى نظرية النبوة فى حقيقتها العلميـة والفلسفية ، وظروفها وأسبابها الاجتماعية ، ومصادرها وأصولها التاريخية ، ونعتقد أنها الجزء الطريف والمبتكر فى فلسفة الفارابى . حقاً إنها تعتمد على أساس من علم النفس الأرسطى ، إلا أنها فى مظهرها الكامل أثر من آثار تصوف الفارابى ومعتقداته الدينية . فأن الاتصال بالعقل الفعال سواء أكان بواسـطة التأمل والنظر أم بواسطة التمثيل هو قمة الصوفية الفارابية . ومن جهة أخرى يجب أن نلاحظ أن الفارابى متمش هنا مع مبـدئه فى التوفيق بين الفلسفة والدين ومتأثر بتعاليم الاسلام تأثره بأفكار أرسطو . فان العقل الفعال الذى هو مصدر الشرائع والالهامات السماوية فى رأيه أشبه ما يكون بالملك الموكل بالوحى الذى جاءت به نظرية الأسلام : كل منهما واسطة بين العبد وربه وصلة بين الله ونبيه ، والمشرع الأول والملهم والموحى الحقيقى هو الله وحده . وبهذا استطاع الفارابى أن يمنح الوحى والالهام دعامة فلسفية ، ويثبت لمنكريهما أنهما يتفقان مع مبادىء العقل ويكونان شـعبة من شعب علم النفس

بين ألمـانيا وإيطاليا يبدو ضئيلاً مزعزع الأسس أمام التطورات الأخيرة فى أوربا الوسطى ؛ وهاهى ذى إيطاليا رغم صياحها ووعيدها تؤثر أن تمد يدها إلى إنكلترا التى تمضى فى تسليحاتها البحرية والجوية بخطى الجبابرة

والخلاصة أن الفاشستية هى منبع الخطر على سـلام أوربا ، ففى إيطاليا وألمـانيا تضطرم النار الخفيـة التى قد تثير ضرام الحرب فى أية أزمة من الأزمات التى ما زالت الفاشستية تعمل على إثارتها بلا تدبر للعواقب ؛ فاذا لم تنجح أوربا فى كبح هذه النزعة الخطرة ، فالويل للسلام الأوربى والحضارة الأوربية ؛ بيد أن كل ما هنالك يدل على أن أوربا حريصة على سلامها وتراثها ، وأنها لن تنحنى أمام وعيد هتلر وموسولينى

(***)

غير أنه قد يعترض عليه بأنه يضع النبي في منزلة دون منزلة الفيلسوف . فأن وصول الأول عن طريق المخيلة في حين أن الثاني يدرك الحقائق الثابتة بواسطة العقل والتأمل ، وليس هناك شك في أن المعلومات العقلية أفضل وأسمى من المعلومات التخيلية ؛ ولكن الفارابي فيما يظهر لا يأبه بهذه التفرقة ولا يعيرها أية أهمية ؛ وسواء لديه أن تكون المعلومات مكتسبة بواسطة الفكر أم بواسطة الخيالة ، ما دام العقل الفعال مصدرها جميعاً ، فقيمة الحقيقة لا ترتبط بالطريق الذي وصلت إلينا منه ، بل بالأصل الذي أخذت عنه ؛ والنبي والفيلسوف يرتشفان من معين واحد ويستمدان علمهما من مصدر رفيع ؛ والحقيقة النبوية والحقيقة الفلسفية هما على السواء نتيجة من نتائج الوحي وأثر من آثار الفيض الآلهي على الانسان عن طريق التمثيل أو التأمل .

على أن الفارابي بعد أن فرق في كتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة بين النبي والفيلسوف من ناحية الوسائل التي يصلان بها إلى المعرفة عاد فقرر في مكان آخر أن الأول ، مثل الثاني ، يمكنه أن يعرج إلى مستوى الكائنات العلوية بواسطة العقل . فان فيه قوة فكرية مقدسة تمكنه من الصعود إلى عالم النور حيث يتقبل الأوامر الألهية فلا يصل النبي إلى الوحي عن طريق المخيلة فحسب ، بل بما فيه من قوى عقلية عظيمة . يقول الفارابي : « النبوة مختصة في روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الأكبر كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر فتأتي بمعجزات خارجة عن الجبلة والعادات ؛ ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شيء عن انتقاش ما في اللوح المحفوظ من الكتاب الذي لا يبطل ، وذوات الملائكة التي هي الرسل ، فتبلغ مما عند الله إلى عامة الخلق » (١) .

وإذا كان في مقدور النبي أن يتصل بالعقل الفعال بواسطة النظر والتأمل فأن النبوة تصبح ضربا من المعرفة يستطيع الناس على السواء الوصول اليه . فبتأثير العقل الفعال نبحث ونفكر وندرك الحقائق العامة ، وبتفاوت أثره فينا تختلف درجاتنا ويفضل بعضنا بعضا ، وإذا ما عظم اشراقه على واحد منا سما بنا الى مرتبة الالهام والنبوة . وعل هذا هو الذي دفع علماء الكلام الى أن يأخذوا على الفارابي ومن جاء بعده من فلاسفة الاسلام ميلهم الى عد النبوة أمرا مكتسبا . مع أن أهل الحق ، فيما يصرح الشهرستاني ، يقولون « إن النبوة ليست صفة راجعة الى النبي ، ولا درجة يبلغ اليها أحد بعلمه وكسبه ، ولا استعداد نفسه ، يستحق به اتصالا بالروحانيات ، بل رحمة من الله يمن بها على من يشاء من عباده » (١) . ونحن لا ننكر أن موازنة الفارابي بين النبي والفيلسوف تدع باب النبوة مفتوحاً للجميع ، كما أن الفلسفة ليست مقصورة على طائفة دون أخرى . إلا أنه يخيل الينا أن الفلسفة في رأى الفارابي ليست سهلة المنال بالدرجة التي تبدو لأول وهلة ، فلكل أن يتفلسف ، ولن يحظى بالفلسفة الحق إلا أفراد قليلون ؛ وفوق هذا فالفارابي يقرر أن النبي ينعم بمخيلة ممتازة أو قوى قدسية خاصة ، ويغلب على ظننا أن هذه القوة القدسية وتلك المخيلة فطريتان في رأيه لا مكتسبتان وإن كان هو نفسه لم يصرح بذلك . ونحن نسلم جميعاً بأن في نفس النبي ومزاجه كمالاً فطرياً استحق به النبوة ، وسما بسببه الى الاتصال بالملائكة وقبول الوحي . والأنبياء هم صفوة الناس وخيرة الله في خلقه : « الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس » يقول الشهرستاني : « فكما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة ونقاء الجوهر ، وصفاء العنصر ، وطيب الأخلاق وكرم الأعراق . فيرفعهم مرتبة مرتبة ، حتى اذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الآلهية بعث اليهم ملكاً وأنزل عليهم كتاباً » (٢)

وأخيراً اذا كان الفارابي قد استطاع التخلص من الاعتراضين السابقين فهناك اعتراض ثالث تعز الاجابة عليه ، وهو أن تفسير الوحي والالهام على النحو السيكلوجي السابق يتعارض مع كثير من النصوص الثابتة . فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في صورة بعض الأعراب أو أنه كانت تسمع له صلصلة كصلصلة الجرس ، إلى غير ذلك من

(١) الفارابي ، الثمرة المرضية ، ص ٧٢

(١) الشهرستاني ، نهاية الأقدام ، ص ٤٦٣

(٢) المصدر نفسه ؛ ص ٤٦٣

آثار متصلة بالوحى وطرائقه . ولا نظن أن هذه الآثار غابت عن الفارابى ، إلا أنه ، فيما نعتقد ، شغل بمسألة أخرى ، وعنى بأن يثبت أولاً وبالذات أن الوحى أمر ممكن ولا يخرج على المبادىء العلمية المقررة ، وبذا أصبح اتصال الروحانى بالجسمانى الذى كان يستبعده الصابئة وغيرهم مقبولاً ، وينبغى أن نلاحظ أن جل جهد الفارابى فى نظرية النبوة لم يكن موجهاً نحو أهل السنة الذين يؤمنون بكل ما جاء فى القرآن والحديث متصلاً بالوحى وكيفياته ، وإنما كان مصوباً الى تلك الطائفة التى أنكرت النبوة من أساسها ، وهذه الطائفة لم تحارب الاسلام فحسب ، بل حاربت الأديان على اختلافها . فلم ير الفارابى بدا من أن ينتصر لمبدأ النبوة من حيث هو وأن يوضحه بمعزل عن أية بيئة أو وسط خاص ، وليس بعزيز عليه بعد هذا أن يتأول ما ورد من نصوص دينية تخالف آراءه أو تبعد عنها ، وقد سلك سبيل التأويل غير مرة ، فسلم بوجود اللوح والقلم مثلاً ، ولكنه فسرها تفسيراً يتفق مع نظرياته الفلكية والميتافيزيقية [1] ، ونحن لا ننكر أن الاسترسال فى التأويل قد يغير كثيراً من معالم الدين ، إلا أنه وسيلة لازمة لمن يحاولون التوفيق بين العقل والنقل . والحقيقة أن الفارابى وقف هنا ، شأنه فى نظرياته الأخرى ، موقفاً وسطاً ، فأثبت النبوة اثباتاً عقلياً علمياً غاضاً الطرف عن بعض النصوص والآثار المتصلة بها . وكأنه فى الوقت الذى منحها فيه أساحة جديدة جردها من بعض ما كانت تعتمد عليه من أحاديث وأسانيد . والموفق مضطر دائماً لأن يستخلص من الرأيين المتقابلين مذهباً جديداً يمت إلى كل واحد منهما بصلة

ومهما يكن من شىء فلو لم يصنع الفارابى إلا أنه أظهر فى جلاء منزلة النبى السياسية والاجتماعية لكفى . وقد استطاع بهذا أن يرد على أباطيل ابن الراوندى واعتراضات الرازى . وعلى ضوئه سار فلاسفة الاسلام الآخرون وفسروا كثيراً من التعاليم الدينية بهذه الروح وتلك النزعة . وبوضع النبوة هذا الموضع الانسانى الاجتماعى يمكن أن تحل مشكلة الرياسة الدينيــة والسياسية التى شغلت المسلمين منذ القرن الأول للهجرة . وفى رأى الفارابى أن النبى والامام والملك والحاكم والفيلسوف الذى نادى به أفلاطون لجمهوريته يجب أن يقوموا بمهمة سياسية واحدة [1] . فهم واضعو النواميس والمشرفون على النظم الاجتماعية مسترشدين فى كل هذا بالأوامر الالهية . وميزتهم المشتركة أنهم يستطيعون الاتصال بالعالم الروحانى فى حال اليقظة وأثناء النوم بواسطة المخيــلة أو المفكرة [2] . وفى هذا التفسير ما فيه من انتصار للاسماعيلية والشيعة بوجه عام سنرى أثره فيما بعد

(يتبع) ابراهيم مدكور

---

(١) الفارابى : الثمرة المرضية ؛ ص ٧٧

(١) الفارابى : تحصيل السعادة ؛ ص ٤١ — ٤٤

(٢) الفارابى : السياسات المدنية ؛ ص ٤٤ — ٥٠

شخصية ناقدة يجهلها النقد العربي

نقد ابن أبي عتيق

للأستاذ خليل هنداوي

ما زدت خوضاً في آثار الأقدمين إلا زدت إعجاباً بها وبهذا الجد الذي ولدها؛ وإنك لتقلب في كتبهم فيبهرك هذا التلون في المادة وهذا التفنن، وهب أنك خرجت منزعجاً لاضطراب في الاتساق واختلاف في الاتفاق، فان هذا لم يكن ليذهب ببعض عجبك من هذا الجد وهذا الدأب اللذين يدلانك على عقلية حاولت أن تتأمل وتعلل!

في كتب الأقدمين ذلك الاضطراب الذي كان لا يحسه أصحابه. لأنهم لم يعملوا أعمالهم على حساب الأجيال الآتية، ولو فعلوا لهوّنوا على مؤرخينا كثيراً من عناء الافتراض وقياس ما لا يقاس، ولكن أصحابنا — عفا الله عنهم — لم يريدوا أن يعطونا الثمرة ناضجة بل أرادوا أن نعمل على انضاجها وصونها. وفي كتبهم ثمرات كثيرة تنادي الأيدي وهي دانية القطوف؛ وأذكر أني ما جلست يوماً إلى كتاب من هذه الكتب إلا خرجت بحديث ممتع أو فائدة جميلة تدفعني نفسي إلى التقاطها وأني لي أن أقسم أعضاء جسدي أقلاماً تسطر!

جلست في هذا الصيف إلى أغاني أبي الفرج التي كلما ضربها الأدباء تفجرت منها عيون جديدة. ووقفت على اسم «ابن أبي عتيق» الذي عاش في الحجاز في العصر الأموي ورافق تطور المدرسة الغزلية أتأمل تكرر اسمه في كثير من المواقف مع كثير من الشعراء، طوراً يبدو لي كناقد وطوراً كسامر، فحصرت مواقفه في هذه المواضع على التقريب، فاذا بي أراني أمام شخصية عنيدة في النقد هي — إذا صح ظني — أول شخصية في الأدب العربي «اليقيني» عالجت الأدب وعملت على نقده غير مستلهمة إلا ذوقها ... ولكن أبا الفرج عفا الله عنه ترك هذه الشخصية مجهولة لأنها — في زعمه — لم تبتكر ولم تنتج شعراً ولا لحناً، ولكن هذه الشخصية تتردد كثيراً على الأفواه. وتغشى كثيراً مجامع اللهو والأدب، وتصبغ كثيراً هذه المجامع بألوانها الخاصة. ومما يجعل هذه الشخصية بارزة ترددها الكثير إلى هذه المجامع المختلفة، وتردد أصحابها اليها معتبرين رأيها في النقد والأدب. ولا أعلم — بحسب روايات الأغاني — نقداً تحليلياً عميقاً كهذا النقد. ولقد أردت أن أوضح هذه الشخصية وأستوضح عنها في بطون الكتب والأخبار، وليس عندي ما يسعفني على ذلك؛ ولو كان ذلك سهلاً لما سهل على عقلي الذي لم أتعود إرغامه على الدخول في هذه المنعرجات الطويلة التي تحتاج إلى تأمل طويل وأناة في الامعان. ولكن ذلك غير مانعي من أن أغامر في رسم ناحية من نواحي شخصية هذا الرجل العجيب المنتج في النقد، وأظنها الناحية الأكثر بروزاً في الرجل

والآن من هو ابن عتيق؟

يبدو لنا ابن أبي عتيق رجلاً يخالط المغنين والشعراء ولابد أنه كان يتذوقهم، وأنه كان صاحب ثقافة واسعة في الشعر والغناء تخول له الحكم فيهما، وإنه كان بعد هذا كله صاحب ذوق خاص يفهم الشعر والغناء به. ومذ كان كما يبدو يقصده الملحنون والشعراء أنفسهم يحتكمون اليه في لحن أو بيت أو ملاحن أو شاعر فلا يتباطأ في حكمه، ولا يفل له رأي في ذلك. حديد اللسان والجنان والبيان! ولولا هذه الثقافة وهذه الشهرة لما كان له مقام في ذلك. ولقد كان عمر بن أبي ربيعة أحسن القريبين اليه، وكان له معه عشرة حسنة ومجالس طيبة، وكان له مع شعراء الحب والغزل أمور كثيرة، ولابد أن حادثة من حوادث غرامه جعلته يحدب على المحبين، ويمثل دور الرسول بينهم وبين أحبتهم

ويمتاز نقده بأنه كان نقد روح ومعان لا نقد قشور ومبان؛ ويعود سر ذلك الى أن اللغة العربية كانت لا تزال بعيدة عن الفساد، وأن لسان العرب كان لا يزال لساناً فصيحا، وكان نقده أقرب الى أحاديث النوادي، لأنه نقد بيت أو فكرة، ولأنه نقد يلم بجانب واحد من المعنى ويهمل بقية الجوانب. ونقده ليس فيه صرامة ولا خشونة ولا صلف، وإنما هو نقد تهيمن عليه رقة حجازية ومجون بريء يأبى إلا أن يظهر. ومن وراء ذلك تهكم بعيد ويصيب المفصل! ولهذا التهكم جعل الشعراء يتقربون اليه ويطمعون في اكتساب مرضاته. وهو يذهب تارة في نقده يكشف عن المعنى غطاء ثقيلا، وطورا

يستجلي المعنى البعيد فى البيت ويكشف عن قصده، وتارة يفسد على الشاعر ما ذهب اليه ولم يفطن له! ومثل هذا النقد أقرب الى الروح الأدبية فى ذلك العصر وهو — بعد هـذا — بعيد عن مثل ذلك الاختلاق الذى وضع على لسان الخنساء يوم نقدت حسان بن ثابت وأضعفت بنقدها اللغوى مواضع فخره! لأن الوثبات الأدبية الأولى فى الأمم لا ترنو إلى مثل هذه الفروق اللغوية الدقيقة التى لا تنشأ إلا عند رجال انصرفوا إلى اللغة وتدقيقها والتفريق بين فروقها، ولو أن هـذه الوثبات تلتفت إلى هذه الفروق لفتات كثيراً من روح نشاطها وأخمدت كثيراً من نار إبداعها. ويمتاز ابن أبى عتيق بثقافته الغنائية، ومثل هـذه الثقافة ترقق الذهن وتلطف الحواس وتجعل للبيت المنظوم قدراً خاصا. وقد كانت هذه الثقافة الغنائية عنده سليقة طبيعية. ولقد مر ذات يوم بمعبد وهو يغنى — وكان طفلاً — فقال: «إن عاش معبد كان مغنى بلاده» وعاش حتى رأى صدق نبوءته. ويمتاز بهذه الروح الخفيفة التى لا يستغنى النقد ولا الناقد عنها. ويدل على ذلك مواقف كثيرة

منها أن عمر بن أبى ربيعة شبب بزينب بنت موسى الجمحية بقصيدته:

يا خليلى من ملام دعانى ... وألما الغداة بالأظعان

وكان سبب ذكره لها أن ابن أبى عتيق ذكرها عنده ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر. فبلغ ذلك ابن أبى عتيق فلامه فيها وقال له: أتنطق الشعر فى ابنة عمى؟ فقال عمر

لا تلمنى، عتيق! حسبى الذى بى ... إن بى يا عتيق ما قد كفانى
لا تلمنى، وأنت زينتها لى ... أنت مثل الشيطان للانسان

فقال أبو وداعة السلمى منكراً على عمر التشبب بها «لا أقر لابن أبى ربيعة أن يذكر امرأة من بنى هصيص فى شعره» فأجاب ابن أبى عتيق «لا تلوموا أبا وداعة أن . . . من سمرقند على أهل عدن» ومن خفة روحه أن سمع عمر ينشد قصيدته

ومن لسقيم يكتم الناس ما به ... لزينب نجوى صدره والوساوس
ولست بناس ليلة الدار مجلساً ... لزينب حتى يعلو الرأس رامس
خلاء بدت قمراؤه وتكشفت ... دجنته، وغاب من هو حارس
وما نلت منها محرماً غير أننا ... كلانا من الثوب المورد لابس

قال عتيق: أمنا يسخر ابن أبى ربيعة، فأى محرم بقى؟ فاعتذر عمر، فقال له عتيق: يا عاهر! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة. فانظر ما كان أبعد هذه الروح فى كشف المستور، وما أخف روحها فى التعبير عنه

ولقد يثب فى تهكمه من الأدب إلى السياسة ويضربهما ويصيبهما بحجر واحد ويكون تهكمه فى هذا الموقف الدقيق بليغاً ما بعده أبلغ! سمع عمر ينشده قوله

فأتتها طبة عالمة ... تخلط الجد مراراً باللعب
إن كفى لك رهن بالرضا ... فاقبلي يا هند! قالت: قد وجب

فقال له عتيق: إن الناس يطلبون خليفة مذ قتل عثمان فى صفة قوادتك هذه يدبر أمورهم فما يجدونه. فماذا يستطيع المحال أن يزيد على هذا التهكم؟ ويسمع عمر ينشده قوله

حبذا أنت يا بغوم وأسما ... ء وعيص يكننا وخلاء

فقال له: ما أبقيت شيئاً يتمنى يا أبا الخطاب إلا مرجلاً يسخن لكم فيه الماء للغسل. ولا أدرى كيف يوثق بين محرم وطاعة إلا التهكم وحده؟

ويسمع عمر ينشده قوله:

ليت ذا الدهر كان حتما علينا ... كل يومين حجة واعتمارا

فأجابه عتيق: الله أرحم بعباده أن يجعل عليهم ما سألته ليتم لك فسقك! وهكذا نجد أنه يتصدى لعمر لا لأنه يضمر لعمر مقتاً أو كرهاً، ولقد كان لعمر فى نفسه منزلة لم ينزلها غيره من شعراء عصره وهو الذى تنبأ بنصف بيت كان فى خاطر عمر

قال عمر: لا تلمها وأنت زينتها لى
فأجاب عتيق: ... أنت مثل الشيطان للانسان
فقال عمر: هو والله!

فقال عتيق: إن شيطانك ورب القبر ربما ألم بى فيجد عندى من عصيانه خلاف ما يجده عندك من طاعة، فيصيب منى وأصيب منه

ولعمر كما ذكرت فى نفسه منزلة خاصة إذ يرى فيه المثل الأعلى للشعر، اليه يسمو الشعراء، وبشعره يقتدى الشعر. ولقد كان يعرف شعراء عصره منزلة عمر عند ابن أبى عتيق. فكان يأتيه من يحاول مناقضته أو مجادلته فيه، وكان الشاعر يأتى بأبيات يتحدى شعر عمر، ولا أعلم شاعراً انثنى سالماً من نقد ابن أبى عتيق، ولا أعلم واحداً استطاع أن يجرح له حكماً أو نقداً

(دير الزور) البقية فى العدد القادم **خليل هنداوى**

فى الحيــــاة

للأستاذ السيد محمد زيادة

لست أكتب هذا لأكتب ؛ وإنما هي شكوى أطرحها هنا . . . أما طرفها الأول فهو أنا ، وأما طرفها الثانى فلا أدرى أهو شعورى المرهف لكل كبيرة وكل صغيرة تمرُّ به ، أم هو وجدانى المستوعب دائماً كلَّ ما فىَّ وكل ما أنا فيه ، أم هو نفسى المتفتحة لكل ما ينتهى إليها من أمرها ومن أمر غيرها ! ! .

فأنى فى هذا الشعور بهذا الوجدان مع هذه النفس أعيش فى الدنيا كسفينة المستكشف عملها فى اليمِّ أن تظل حائرة على وجه اليم فلا تكاد ترسو إلى شاطئ إلا لتنشد غيره ؛ ويتملك رأسى خيالٌ يقظ لا يهجع . ويقظة الخيال شقاء من الفن فهى شقاء فى كل مواقع الحس لكل نواحى الحس

وأرانى منكوباً بهذا الخيال مرزوءاً بهمّه ، ثم أرانى أحيا به ولا أحيا بغيره . . . فكأنما أنا بين بليّتين فيهما مشكلتان لا حل لهما فلا نجاة منهما . . .

وأحس أننى قد قدر علىَّ أن أعيش هكذا حتى أموت هكذا ؛ فما أستريح يوماً من سمى الخيال وراء ما يعنى ومالا يعنى ، ولا أقصر يوماً عن التفكير فى صوره التى يستخرجها من صور الحياة . أُرانى مقطوعاً من قمة جبل محطوطاً عند سفحه ، وأريد أن أرى وأنا عند السفح ما أراه وأنا فى القمة ؟ . . أم ترانى أخطأتُ إذ خلقتُ لتحتوينى الدنيا فظننت أننى خلقت لأحتويها ؟ . .

***

أمشى فى الطريق فأرى قصاباً يمر بسكينه مرتين على رقبة ديك كبير ، ثم يقذف به بعيداً ؛ فيقف صامتاً تتدفق الدماء من عنقه ، وتزوغ عيناه فتارة تشخص إلى القصاب ، وتارة تتطلع إلى الصبية الملتفين حوله يشهدون مصرعه ، وتارة تنظر إلىَّ وكأنها تقول كلاماً ، ثم يرقص الديك رقصة الموت إذ ترنّحه المنية ، ثم يرتمى على الأرض . . . فألقى علية نظرة ساكنة ثم ألتفت عنه وآخذ سبيلى فاذا هى على غير ما كانت عليه ، وكأن الشارع بما فيه من سابلة وما يحفه من مبانٍ خلوةٌ هادئة فى وهدة غارقة بين نجدين . فأستعيد صورة الديك مضطرباً ثم مذبوحاً ثم هامداً فيخيل إلىَّ أنه كان وقت ذبحه يقول : الآن قد آمنتُ بأننى ما خلقت إلا ليأكلنى من كان يطعمنى . .

ثم أغيب عن الوجود غيبة ، وأظل أفكر ويشغل بالى التفكير . وقد يستنفد هذا من وقتى ومن ذهنى ما أنا فى حاجة إليه لشؤونى

***

وأنطلق مع صديق لى إلى ناحية المروج فى نزهة خلوية فتقابلنا على الأرض نملة تسعى ، فيدوسها الصديق بقدمه عامداً إلى قتلها ؛ ولكنه يتركها تتلوى فلا هى بالحيّة ولا هى بالميتة ، فيشجر بينى وبينه شقاق فى الرأى حول فعلته . . . أريد أن أثبت له أنه مخطئٌ وأن الله لم يجعله على الأرض مبيداً للحشرات ، ويريد هو أن يثبت لى أنه مصيب وأن الله لم يجعلنى على الأرض مرشداً للناس . وبطول الخلاف بينى وبينه ، فلاهو مقتنع بأن عمله هذا قسوة ولا هو مقنعى بأن عمله هذا رقة ؛ فأضطر إلى السكوت على مضض وأمشى مشفقاً على النملة المتوجعة ، متألماً لطغيان القوة على الضعف ، متعجباً لاعوجاج معنى الحياة ، حاملاً من إشفاق وتألمى وتعجبى ثورة على صديقى . . . لقد ديسَتْ النملة وتحطمتْ وبقيتْ تتعذب حتى تموت فماذا جرى منها حتى تستحلَّ ما جرى عليها ؟ . . وأين الرحمة ؟ أين الرحمة ؟

وأظل أتغيظ ويملأ الغيظ نفسى ، وقد يذهب هذا من سرورى ما أنا فى حاجة اليه لنفسى

***

ويصادفنى فى الطريق رجل كسير مسكين يترقرق الدمع فى عينيه ويكاد يطفر ، وتجول الحسرة الصامتة فى جبينه وتكاد تتكلم ؛ فتلتقى عيناى بعينيه فى موضع الفاقة من هيكله ، ثم يلتقى شعورى بشعوره فى موضع الألم من نفسه ... وأراه يتلفت عن يمينه وعن شماله متفرساً فى وجوه المارين به من الزوارق اللاهية بالصخرة الحزينة ، فأذهب أتصور نفسى بائساً بؤسه حائراً حيرته واقفاً ، وأمكث أتحرى فى مسارح شعورى ما كنت أقوله لنفسى وما كانت نفسى تقوله لى ... حتى أسمع فى وجدانى هذا الحديث : كنت أقول لنفسى : أنا جائع فهل من هؤلاء الناس السعداء من يعرف الجوع ؟ وهل منهم من يرده ؟ ... وتقول لى نفسى : أمسك على الطوى فليس بين الناس من يرجى ، وليس

غير الله من يُسأل ... فأقول لها وهل المحسن من الناس إلا يدٌ من الله تمد بالحسنة ؟ ... فتقول لى : يد الله لا تنتظر السؤال لتعطى ...

ويتمطط حديث الوجدان ويطول ، وأظل أتحسر ولا أستطيع إلا أن أتحسر ؛ وقد يستغرق هذا من وجدانى ومن خاطرى ما أنا فى حاجة اليه لعملى

***

وأجلس فى غرفتى مسهداً فى هدأة الليل تشرف بى جلستى على دور ومن ورائها حقول ومن ورائها ما لا يرى ... فتذهب عينى إلى مسارب الفكر ، ويغوص فكرى إلى أعماق الكيان . فماذا أجد هناك ، وما تحمل نفسى من هناك ؟ !

أجد هناك إرادة الحياة تغالب إرادة الموت فتتجاذبان روح الانسان ، والانسان بينهما عاجز لا حيلة له ، ضعيف لا قوة فيه ، مسخر لا رأى عنده ... وما تزالان تصطرعان حتى تهتديا إلى حل تصطلحان عليه ، هو أن يموت الانسان جزءاً من اليوم على قدر استعداده للخمود والموت ، ويحيا بقية اليوم على قدر استعداده للعمل والحياة ؛ وتتفقان على أن تسمى تلك الموتة اليومية الصغيرة بالنوم ، فيقال نام .... حتى تعافه الحياة فتنزل عنه للموت فيقال مات ...

وتحمل نفسى من هناك كلمة الفناء ومعها كلمة الألم ؛ وأقول لنفسى : حقاً إن هذا الذى نسميه النوم ما هو إلا راحة أصغر من راحة ، فهو موت أصغر من موت ... يا عجباً ! ! أهكذا جُعل الموت على رقابنا حتى لم تخلُ منه الحياةُ نفسها ؟ ! أهكذا خُلقنا لنموت ونحيا كل يوم ثم نموت فى يوم فلا نحيا ؟ ! ثم أقول : يا ويلتاه ... لن ألبث إلا قليلاً حتى أكون فى عداد هؤلاء الأموات الذين تركوا الدنيا وما يزالون فيها .. فمنهم من يبعث ليأرق ثم يموت ، ومنهم من يبعث ليشرب ثم يموت ، ومنهم من تدخله موتته الصغرى فى موتته الكبرى فلا يبعث إلا يوم الحشر ...

وأظل أتأمل وأتوزع بين التأملات ؛ وقد يشغل هذا من بصيرتى ومن إدراكى ما أنا فى حاجة إليه لقلبى

***

وآوى إلى مضجعى قبيل الفجر مهدماً كالقادم من سفر طويل ، مكدوداً كالفارغ من عمل شاق ؛ وألقى برأسى على الوسادة ثقيلاً كالحجر ، ساخناً كالأتون ، ممتلئاً بما أفرغت فيه المشاهد والمشاعر من صور طول النهار ومعظم الليل ... وفيما أنا أستشعر الحلو ، وألتمس الاستقرار ، وأستكفى نحى عناء التفكير ، وأقنعه بضرورة الرقاد ... يطرق مسمعى صوت بوم ينعب ، وأنا لا أمقت كما أمقت البوم طائراً نافعاً أو ضاراً ؛ فأنهض من فراشى لا لأغلق النافذة دون ذلك الصوت الكريه البعيد فأزيد بعده أو أصده ؛ وإنما لأطل من النافذة فأقترب من ذلك الصوت الكريه البعيد فأسمعه جيداً لعلنى أفهم غموضه فأفسره ...

وتمر من الليل فترة وما تكاد تنقضى حتى أجدنى قد انقلبت عاطفا على البوم واجداً فى نعيبه جمالاً ولذة ؛ وما تغير هو حتى صار محبوباً ، وما تغيرتُ أنا حتى صرت أحبه .. ولكنى إذ أفتح لسماعه آذان نفسى أسمعه كالمغنى ، وإذا أفتح لغنائه آذان عقلى أتسمع فيه نداء المحب المشتاق للحبيب الغائب ...

وأظل ألقى على نفسى فى أمر البوم ونعيبه وشؤمه السؤال بعد السؤال ؛ وقد يأخذ هذا من راحتى ما أنا فى حاجة إليه لجسمى

***

وهكذا أرانى منكوبا بهذا الخيال مرزوءاً بهمه ، حتى ليقودنى إلى جنون شعرى ثائر يفقدنى لذة التمتع بمظاهر الكون وجماله فى البحث عن حقيقة الكيان وأسراره

والعزيز على هو أنى لا أملك الخلاص من الخيال ، فأنا لا أملك الخلاص من هذا التعب — اللهم إن كان هذا من فطرة الشعر فلبئست الفطرة ، ولخير منها فطرة الجمود والبلادة

إن من الناس أناساً يعيشون فى هذه الحياة ليعيشوا فقط ؛ لا فكر فى أدمغتهم ، ولا حرب فى عقولهم ، ولا نصب فى أفئدتهم ... كأنما خلقوا جسوماً بغير قلوب ، ولكنهم سعداء لأنهم يشعرون بأنهم سعداء !!

أريد أن أجرب هذه السعادة فأطرح هموم الخيال ، وأنسى خيال الهموم ، وأعيش بظاهر ما أرى .. أريد أن أفهم ولو يوما واحداً أننى سعيد وإن فهم الناس فى ذلك اليوم أننى شقى

(طنطا) السيد زيادة

بغـــير عنوان ...

[إن وجدتم في هذه الكلمة صراحة في الوصف ، فلا تلوموا الطبيب فأنه يصف المرض ، ليعين الدواء]

للأستاذ علي الطنطاوي

كان شابا غريرا نقياً جميلاً ، صبوح الوجه ، متأنقاً ، قد أصيب بمرض التجمل ... فلم يكن يجيء إلى المدرسة إلا متزيناً مستعداً استعداد عروس تزف إلى بعلها ، قد صفف شعره ودهنه وعطره ولبده وعقربه على صدغيه ، وحلى وجهه وصقله ، وصنع به ما لست أدري ... فبدا أبيض أحمر مشرقا مجلواً صقيلاً ، كأنه صفحة مرآة ... وكشف عن أعالي صدره ، وأحاط عنقه بهذه العقدة التي يفتن في عقدها واختيار لونها واتساقها مع الحلة التي يلبسها افتناناً .... ولا يزال أبداً يمد يده إليها يتلمسها ، ويصلحها ويطمئن عليها ، ثم يحرك رأسه حركة غنجة يرد بها عقارب صدغيه إلى مكانها !

وكان واضح الجبين ، أزج الحاجبين حتى كأنهما قد خطا بقلم ، أنجل العينين أشهلهما كأن لهما لون السماء وعمق البحر ، وكأنهما تستجديان الحب ... إذا نظر غض الطرف من الحياء ، ودانى بين جفونه ، وبرقت عيناه الناعستان فقالتا كلمة فلم تتم ، فأتمها فمه القاني الصغير وشفتاه المضمومتان ... واذا تكلم تكلم بصوت لين حالم سكران ، كأن ألفاظه تقول شيئاً ، ولهجته ونبراته تقول شيئاً آخر ، تقول : إن رجولة صاحبي رجولة مزورة ! واذا مشى تثنى وتخلع وتكسر ، وماج جسمه موجاً ، وذهب كل عضو منه في ناحية ، كأن جسمه متفكك ، قد تقطعت أوصاله وفصمت عراه وانحلت لوالبه .... وإذا دعوته أقبل الى يتهادى ويميل ، فاذا وصل الى حيث أكون ، وجد أقرب متكأ فاستند عليه ، كأنه بناء لا يقوم الا اذا أسندته بدعامة ، واذا كلمته خجل كأنه فتاة في الخدر ، وأجاب بصوت خافت يكاد يبتلعه الخجل ، فكنت أزعق في وجهه من الغيظ ، ثم أطرده طرداً ...

ولم يكن ينصرف الى علم أو يقبل على درس ، لأن عقله قد سال على جوانب جسمه خرقا وثيابا ، ولم يبق منه في داخل ما ينفع لعلم أو درس ، فهو دائماً ينظر في عطفيه ، ويتأمل ثيابه ويخرج من جيبه مشطه ومرآته ، ولولا بقية من حياء لأخرج أبيضه وأحمره وقلم شفتيه ...

وكنت أراه في باحة المدرسة فأراه غريبا عن هؤلاء الشباب لا يطيق حراكا ، ولا يحسن لعبا ، ولا يدفع عن نفسه اعتداء ، وما فيه من الرجولة الا اسمه وبدلته

***

وحاولت اصلاحه ، وتعهدته بالنصح والارشاد ، فكنت كمن ينفخ في غير ضرم ، فأيست من اصلاحه وكرهته وأبغضته ، وجعلت أزوى بصري عنه ، وأتناساه وأهمله ، ثم افتقدته فلم أجده ، ثم علمت أنه قد فارق المدرسة

ومرت أسابيع ، ثم رأيت في مكانه طالباً جديداً من الطلاب الذين يتدربون على الجندية ، يلبس الثوب العسكري ، وعلى وجهه طابع الرجولة : له شاربان كاملان ، وأثر اللحية ظاهر على خديه ، والقوة والصرامة بادية في عينيه وملامحه ؛ وكان قوى النظرات ، صماقا جهير الصوت ، ذكياً مقبلاً على الدرس ، فطناً ألمعياً ؛ وكان سريع الحركة ، جم النشاط ، اذا دعوته أقبل يسير بخطى موزونة ، يطأ الأرض وطأ شديداً ؛ وقد نصب قامته ورفع رأسه ، فاذا قام بين يدى قرع رجلاً برجل ثم رفع يده بالسلام لا كما يرفعها مثلي أو مثلك ، بل كما يرفع يده الجند بالسيف يستله من قرابه ، واذا كلمته أجاب بجرأة وأدب ؛ وكنت أراه في ساحة المدرسة ، فأراه على اجتهاده واقباله على العلم ، قوياً نشيطاً يصارع الطلاب ويباطحهم ، فاذا تمكن من منهم وعلا عليهم عفا عنهم وأبقى عليهم ، فكنت أعجب من قوته ونبله ، وعلمه وفضله ، وأكبر فيه هذه الصفات

***

ثم انني أحببت أن أشجعه وأضرب منه للطلاب مثلاً ، فتكلمت وأثنيت ، وقلت : كم بين هذا وبين ذاك من فرق ...!!

فصاح الطلاب : ومن هذا ومن ذاك ؟ انهما شخص واحد !

قلت : ويحكم ! فأى معجزة هذه التي بدلته شخصاً آخر ، وأنشأته انشاء جديداً ؟

قالوا : يا أستاذ ... إنه تدرب أسابيع على الجندية ... ...

(بغداد) علي الطنطاوي

في الموسيقى

إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب

للأستاذ محمد زروقي

سيدي الأستاذ :

لا أدرى إذا كانت أعمالك الكثيرة تسمح لك بتوجيه بعض اهتمامك الى ملاحظاتي الآتية ، كذلك لا أدرى إذا كانت وجهة نظري تبدو لك على صواب . وبالرغم من ذلك فاني أحسن الظن بك ، وأسجل هنا أني آمل منك أن تتنازل لسماع صوت متواضع من بعيد لشخص من أكثر المعجبين بك والمتحمسين لك

واسمح لى بادىء ذى بدء أن أوضح لك نقطة هامة راجياً منك العفو وحسن القبول

وليس لى أن أوجه خطابي الجرىء الى الأستاذ محمد عبد الوهاب الذى ليس لى شرف معرفته المعرفة الكافية ، ولكنى أوجهه الى فناني المفضل ، الى ذلك الذى كثيراً ما أستمع اليه ، الى ذلك الذى يستطيع — كصديق حميم — أن يفتح لى قلبه بكرم فأرى وأميز قلبى منعكساً عليه

وهنا يخيل إلى أن معرفتي الدقيقة بالفنان — وهى ترجع الى مدة بعيدة — تحتم علىَّ ألا أخفى عنه شيئاً ، وإلا كانت بمثابة خيانة له . كما يخيل الى أن تبادل الشعور يجعل لى الحق ، وربما يتطلب منى البحث عن شيء من أخطائه والاحتجاج على بعض وسائله

بعد ذلك أبداً — إذا سمحت لى — بأن أعبر عن الأسف الذى يعتورنى عند ما أسمع بعض مقطوعاتك المشهورة مثل « فى الليل » و « اللى انكتب » باللهجة المصرية ، فى حين أن لغة امرىء القيس والمتنبى هى التى كان يجب استعمالها إذا كنا نود أن نهدى الى أحفادنا مثل هذه الأعمال الخالدة . فذلك الذى أودع « يا جارة الوادى » فى أسطوانة يجب ألا يتقيد بحدود البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ، وأن يظل ضمن الحدود التى اختطها الفراعنة « فماذا تهم الزجاجة نفسها ما دامت تسكرنا ؟ »

وإنى أشارك « نيتشه » رأيه الذى يقول بأن العاطفة يجب أن يعبر عنها الصوت دون غيره ، وألا نعطى للكلام أكثر مما يستحق من الأهمية ، ولذلك فأننى أعطى الموسيقى نفس المرتبة التى يضعها فيها المفكرون : تلك المرتبة التى تحلها محل الكلمات العاجزة عند ما تكون هذه الأخيرة فقيرة وقاصرة أمام مطالب الحساسية القوية

الآن أنتقل الى الغرض الأساسى من خطابى :

حاولت فى بحث قصير كان موضوع إحدى المناقشات أن أوجد مقارنة بين الحساسية فى الغرب وبينها فى الوسط الذى أعيش فيه ، وذلك عن طريق دراسة أقوى وسائل التعبير عنها — ألا وهى الموسيقى — ولكى أعزز مناقشتى لجأت الى الأدب وتاريخه وشخصياته البارزة . وحينئذ أصبحت مدفوعا الى أن أقرر بأن الغرب قد تأخر الى القرن التاسع عشر ليشهد ازدهار « المذهب الرومانتيكى » أى تلك الحركة الفكرية والفنية التى تشبه أدبنا الى حد بعيد . ولذلك فان أوروبا لم تخلق إلا حديثاً ، وحديثاً جداً من يكمل ما بدأه عمر الخيام والمعرى والفردوسى . فالنفثة الحزينة المؤلمة التى بعثها الفيلسوف شبنهور (١٧٨٨ — ١٨٦٠) هى التى ألهمت كل الموسيقيين الرومانتيكيين ، هؤلاء الموسيقيين الذين عالجوا مسائل القدر المعقدة ، وآلام الانسانية المحكوم عليها بالعذاب . وإن أشهر زعماء المتشائمين الغربيين ليس لهم أن يعلمونا شيئاً ، كما أن شوبان الذى قيل إن « توقيماته ما هى الا دموع متساقطة على أصابع البيانو » لم يصل مطلقاً الى ما وصلت اليه أغانينا الحزينة حسب رأيى على الأقل

ولاشك فى أن الموسيقى ليست عالية . فلن تستطيع أن تفهم « سيزار فرنك » كما يفهم نفسه أو كرجل مسيحى ، ولا « بتهوڤن » بدون دراسة عميقة للفلسفة الألمانية . وانى أحاول فى حكمى أن أتناسى الآراء التى انتقلت الى بالوراثة ، وأن أتحاشى التحيز والتعصب فى نقدى ، وأنا لا أنكر أن هذا العمل يتطلب منى جهداً عظيماً ، وتسامحاً كبيراً . ولكن دراستى المتواصلة والبعيدة عن المحاباة لشلر ومدام دستايل وشاتوبريان وبيرون وبودلير ، الذين أذكرهم هنا كقادة المدرسة الرومانتيكية ، لا ترسم لنا صورة جديدة أو أثراً يكون أجنبياً عنا حقيقة

بقى علينا أن نتساءل فى صراحة : أليست الموسيقى الغربية التى لا تسير الا فى المحيط النظرى (الميتافيزيقى) أكثر تأخيراً من موسيقانا ؟

إن أوروبا بمؤلفيها الموسيقيين فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين — برغم أعمال سترافنسكى — تُظهر تخبطاً لا نهاية له فى محاولتها دراسة القضاء والقدر التى تتحكم فى رقاب الناس . فاعتبار هذه الحالة درجة من الكمال تستحق أن تحتذى كما يحتذى التقدم العلمى ونظرياته تكون غلطة ما أقبحها من ذلك الشخص الموهوب الذى يصدح على ضفاف النيل . فالبحث كذلك عن مناح جديدة فى الألحان الغربية واستخدام وسائل تعبيرها يعد منا رجعة الى الوراء

وقد ظهر لى أن محاولاتك تتجه يوماً بعد يوم نحو توافق الأصوات واخراج مجموعة متنافرة منها فى لحظة واحدة وبالتبعية محاولة التعبير عما يضطرم فى نفسك بما تستخلصه من ذلك

كانت النغمة الفردية الأوربية دائماً أبداً ضعيفة ، فلا عجب أن نراها تلجأ الى تلك الأصوات المتجمعة ؛ هذه الأصوات تعبر عن أشياء متباينة ، ولكنها تصدر فى وقت واحد لتنتج من ذلك تآلفاً فيما بينها . ولا أدل على ضعف السلم الموسيقى الغربى من اقتصاره على استعمال النغمتين فقط (ويلاحظ أن النغمة المنخفضة ترجع الى عرب اسبانيا) فى حين أن الفرس فى العصور الوسطى قد استعملوا ستا وثلاثين نغمة وأن الأندلسيين استعملوا أربعين منها ، وأن الشرقيين بعكس المؤلفين الموسيقيين الحديثين لم يجعلوا ألحانهم تعتمد على قدرة آلاتهم وعلى الأخص على وضع علامات لها

وليست الرغبة فى استعارة آلات موسيقية عجمية «كموسيقى اليد» إلا وقوعاً منا فى نفس الخطأ الشنيع الذى وقعوا هم فيه وتجنياً منا على الموسيقى الشرقية

ومهما كانت محاولاتك جريئة وتستحق الاعجاب فيجب أن تعرف — فى رأيى المتواضع — كيفية الرجوع الى مصادر الأشياء ، وأن تتساءل عن ماهية العوامل التى تهيىء الخلود لفكرة ما ، وأن تفكر فى النتائج التى يصح أن تنتظرها من وراء هذا الاقتباس . وهنا يجب أن تعترف بأن قوانين الوراثة تلعب دورها الهام : فان «بولدييه» و «برليو» لا ينسبان فضل أعمالها الى نفسيهما فقط . . . . لأنهما رضعا ألحانهما من ثديى أميهما اللتين حصلتا عليها بدورهما ممن سبقوهما ، وهما ليستا إلا حلقتين من سلسلة طويلة

وليس من الغريب أن نرى وجوه الغربيين عندما يستمعون الى موسيقانا وقد ارتسمت عليها تلك الابتسامة التى ترتسم على وجوهنا نحن عندما نستمع الى الموسيقى الأولية . وهناك حقيقة أخرى أكثر خطرا ، وهى أن الأوربيين لا يكادون يفهمون من أنغامنا الموسيقية إلا ما استعرناه منهم ، وحيث أننا لم نوفق فى استعارتنا فهم لا يحجمون عن الحكم على الجزء العربى منه بأنه ردىء

وهذا ما يدفعنى الى سرد أمثلة من خطواتك الحيرة غير الموفقة : «فبحارة الفلجا» أغنية روسية واقعية تعبر عن العذاب العقلى والجثمانى الذى كان يعانيه سكان قلب الروسيا ، وقد أخذتها أنت بنفسك فى فلم «الوردة البيضاء» وهو فلم شعرى خالص : فالشقة بينهما بعيدة بعداً شاسعاً

و «ياشراعاً» وهى قصيدة مقدمة الى الملك فيصل عبارة عن نشيد يراد به مدح بلاد الرافدين ، فهل يصح أن نقبل هذه النغمات التى تحرك العاطفة بدون شك ، ولكنها خالية من الحمية والملاطفة التى يجب أن تكون عند مَنْ يريد أن يمدح ملكا محبوباً يعجب به ؟ ففى هذا النشيد نبحث عبثاً عن الحمية التى نراها فى نشيد « Le Marche du Prophéte » لميربيير الذى فيه يعبر عن الكثير من العظمة والنبل

وعند ما ننعم النظر فى مقطوعاتك الأخيرة نلاحظ فى حسرة شديدة بأن «الحركة» قد زادت فيها كثيرا بحيث أن الأذن تتساءل فى حيرة عما إذا كنت أنت حقيقة الذى ملأت اسطوانة «أيها العلم الخفاق» رقم ٩٩,١٠٤، ٠ (١)

(١) هذا الخلط غير المقبول بين ألحاننا والألحان الأوربية مما يستدعى مزيد الأسف وهو فى رأيى لا يختلف عن وضع المستردة فوق الكسكسى ليعطى له طعماً شهياً وهذه الحالة تذكرنى بالبضائع الغربية الرديئة التى كثيراً ما يضعها أغنياء المسلمين فى منازلهم : تلك البضائع التى تتنافر مع بدائع الفن وروائعه ، أو مع سجاد بخارى القديم وسجاد القيروان والرباط والرسوم الدقيقة على النحاس المصنوع فى الأندلس وفى سورية

فهل يجب علينا إذن ألا نستوحي شيئاً عن الموسيقى الغربية ؟

لا بكل تأكيد . ولكن ذلك لمجرد الاطلاع فقط . فمن الضروري أن ندرس هوجو ولامرتين وشكسبير ورابندانا تاجور وإبسن وكبلنج وتولستوي وسرفنتس لكي نفهم الآداب العالمية ، وهذه الدراسة ليست أقل لزوماً من إرسال أبنائنا الى الخارج لتمضية بعض الوقت في « مدرسة الفنادق في جرينوبل » أو في معامل الاختبار للمراكز الصناعية في « بربي » و « برمنجهام » وفي الأحواض البحرية في « نانت » و « كيل »

ولكي أعزز رأيي هذا أذكر الحقيقة التاريخية الآتية : عندما انتصر هرون الرشيد على الامبراطور نيقفور البيزنطي عام ٨٠٦ ميلادية نص في معاهدة الصلح بينهما على شرط يلزم المغلوبين بتسليم العرب جميع المؤلفات التي خلفها القدماء والمحفوظات الموجودة في دور الكتب بالقسطنطينية القديمة . وقد برهن العاهل العربي مرة أخرى على ذكائه الفائق وفهمه للحقائق ، فقدر أن شعبه يجب أن يتفهم ويستوعب سريعاً كل المعارف التي وقف السابقون على أسرارها ، وأن العرب بدون مساعدة غيرهم لا يمكنهم تأسيس حضارة ثابتة ؛ ولذا يجب عليهم أن يستمينوا عن تقدموهم من مصريين وكلدانيين ويهود وفرس وهنود ويونانيين ورومانيين وقرطاجنيين ، وأن يستفيدوا من معارفهم ، وأن يتوفروا على دراسة أوراق البردي واللوحات وتماثيل الآلهة . فبعد أن درس العرب العصور السابقة أمكنهم أن يضيفوا معارف من سبقوهم الى معارفهم الخاصة التي ستبقى على مدى الأيام

وكذلك اليابان : فما الذي فعله حزب التجديد عندما تربع في دست الحكم عام ١٨٦٨ ؟ لقد بدأ بدراسة مبادئ الأحزاب الأخرى في الدول المتمدينة

فاذا تحدثنا عن القلب ونشاطه والحساسية وطرق التعبير عنها وجدنا الأمر هنا مختلفاً عن ذلك ، وهذه النقطة الهامة هي محور بحثي : فالاحساس المتناهي ورد الفعل وتجسيم التأثيرات النفسانية لا يمكن أن تقارن بالمعارف التي يمكن اكتسابها

وهناك نقوش فرعونية تذكر بعض النصائح الموجهة من أم الى ولدها يوم أن عهدت به الى أستاذه . وهناك نقوش أخرى تعبر عن مثال خالد : ذلك هو ألم الأشخاص المحكوم عليهم بالعمل اليومي الشاق المضني . فمليك أيها الأستاذ أن تبحث في زوايا التاريخ عن ألحان أكثر إنسانية ! بل من السهل عليك أن تتخيل الأمهات في هذه العصور البعيدة وهن يهززن مهود أطفالهن بنفس المحبة والعناية والحنان التي تبديها أمهات العصر الحالي . أليس من الخطل والنفاق أن نعتبر وقع الألم النفساني الذي عاناه أسلافنا أخف على نفوسهم من وقعه علينا ؟ وإني لا أجد صعوبة في أن أتخيل الألحان الجميلة التي كانوا يعبرون بها ويصورون عواطفهم التي تتوثب من الألم

وللرجوع إلى الحديث عن محاولات التجديد أو فرنجة موسيقانا يمكنني أن أضرب مثلاً بأحد موسيقيينا الذي حاول منذ سنوات أن يعبر عن بعض مقطوعاتنا الشعرية بأوزان أوروبية ، فكان سبب نجاحه أنه قد استحدث شيئاً جديداً ولكنه كان نجاحاً قصير الأجل ، وسرعان ما أسدل النسيان ستاره على هذه المحاولة وحسناً فعل . وقد بدأ مغني الجزائر الحالي أو « كاروزو شمال أفريقية » كما أطلق على نفسه بالقاء مقطوعات تحترم موسيقانا القديمة ، ويجب على أن أشير أثناء حديثي إلى أن طرق التلحين الأندلسية الاثنتى عشرة التي لا زالت مستعملة في المدن الرئيسة بشمال أفريقية ليست إلا مخلفات وبقايا بالية في حاجة إلى عيون عالم بالآثار — وأقصد آذان رجل موسيقي — لنكشف في هذه البقايا عن عظمة المقطوعات التي كانت تردد تحت أبواب الحمراء المرمرية ، أو تحت ظلال الأشجار الوارفة في اشبيلية وقرطبة (١)

ومهما يكن من شيء فان استعمال هذه المخلفات القديمة لا يدخل كثيراً من التغيير على قواعد الموسيقى ، إذ أن في ذلك محافظة على تراثنا القديم

ولكن للغرب سحره الأخاذ ما في ذلك من شك ، لأن

(١) وإني لا أستطيع أن أتكلم أكثر من ذلك عن الموسيقى الأندلسية وحالتها الراهنة إلا إذا أطلت كثيراً في ملاحظاتي التي ذكرتها الآن . ومع ذلك فاني أشير هنا إلى أن العرض السريع الذي لم يسبقه تحضير كاف لبعض نماذج من هذه الموسيقى الأندلسية في مؤتمر الموسيقى الأخير المنعقد بالقاهرة لم يكن عرضاً صادقاً بل خيانة حقيقية لأن الجمهور الذي يجهل ما اكتنف عرضها من عوامل قد نظر إليها نظرة ليس فيها تقدير

مغنينا الجزائرى خضع لتأثير الأوبرا ، واستمع بسرور إلى الألحان القصيرة من الأوبريت والصالات ؛ تلك الألحان التى طغت شيئاً فشيئاً على مقطوعاته حتى أصبحنا الآن نلمس فيها أكبر فشل فنى معيب

وقد سارت المرحومة أنيسة يامنة الجزائرية فى طريق مخالف لذلك كل المخالفة . فهذه الموسيقية انتهجت نهج الغناء القديم الذى يمكن تقدير أهميته ، واستندت إلى شعورها النسوى القوى وخبرتها الموسيقية الطويلة . وكانت تذهب للاقامة بين أفراد الطبقة الفقيرة وبين العرب الرحل لتغترف من شعورهم البسيط الخالى من كل زخرف ثم تعود بمحصول غنى متنوع وفير ، وبعد ذلك تستسلم لتفكيرها ولأبحاثها وتستمع الى نفسها وتستوحى صوت أجدادها ثم تترك قلبها يعبر عما فى خلدها بألحان تخلب الألباب

وإنى أعرف الكثير عن الطريقة المخالفة لتلك التى يتبعها الأستاذ ، وعمنى آخر ترجمة الغربيين واقتباسهم لموضوعاتنا ؛ وأسوق اليك هنا مثلا مشهورا لأوضح وجهة نظرى : أقام المؤلف الموسيقى سان سانس حقبة طويلة فى الجزائر ، ولذلك يقوم مؤلفه المشهور « شمشون ودليلة » على طريقة التلاحين الأندلسية « زيدان » . ولا أتردد فى أن أضيف الى هذا المثل مثلا آخر فيما فعله ف . دافيد الذى أمكنه بعد رحلة طويلة إلى الشرق أن يخرج مؤلفيه : « الصحراء ، ولالاروك » . وكذلك فعل الاسبانيون وكذلك « بيزت » فى « كارمن » (١٨٧٠) وغير هؤلاء من الذين يدينون بالشىء الكثير الى الأندلس فى القرون الوسطى . ومثل هؤلاء أيضا موسيقيو وسط أوربا مثل لست وشوبر وموزار وبعض موسيقيى أمريكا الجنوبية أيضاً الذين وجدوا فى ألحاننا مورداً فياضاً لا ينضب

والآن أعود متسائلاً إذا كان العكس ممكناً : فتقدم الموسيقى الغربية — فى رأيى — قد بدأ يصل إلى درجة التشاؤم التى تكلمت عنها من قبل . وإنى لا أفكر لحظة فى أن أحط من شأن « الأرلزين وفيدليو ولوهنجرين » ولا أريد إلا أن أضع كل موسيقى فى الوضع المناسب له . وأنى لأذكر هنا ما قاله المسيو « أندريه كوردى » فى مؤلفه « مشاهد الموسيقى العصرية » :

صراع دائم .. الموسيقى العربية تحتضر كل يوم باتصالها بالموسيقى الغربية ؛ وستموت الموسيقى الشرقية إن عاجلاً وإن آجلاً إذا لم تثابر على مقاومة الموسيقى الأوربية الزاحفة عليها بموسيقى شرقية بحتة

قد أكون فيما كتبته أعبر عن أمنية لى . فالفنان الكبير الذى لمصر فخر الاحتفاظ به ، والذى له تلك المهارة الفائقة التى استطاع أن يهضم بها بعض القطع الخالدة فى الموسيقى الرومانتيكية ، لن يعجز بفضل ما وهبه الله من حسن اختيار أن يوفق فى أعماله القادمة فى مزج الموسيقى العربية بالافرنجية بدلاً من المجهود الضائع فى اخراج ثمرة غير ناضجة لا يهضمها الذوق العربى . وإنى أتمنى له التوفيق المطرد والفوز العظيم

(تلمسان) محمد رزوقى

الفصل فى نبوة المتنبى

من شعره

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

- ٣ -

ولنعد إلى النظر فى قصيدة المتنبى :

كم قتيل كما قُتِلْتُ شهيدِ ببياض الطُّلى وورْد الخدود

فقد ابتدأها المتنبى بالنسيب على عادة الشعراء ، وتدله فى ذلك النسيب كل التدله ، وقتل نفسه فيه من فرط الصبابة والوجد ، ثم ذكر أيام الصبا والجهل وحنَّ إليها ، وتفنن فى وصف الحسان اللاتى نسب بهن أيما تفنن

ولم يكفه ذلك التدله فى النسيب ، والتفنن فى وصف النساء ، بل عمد إلى الخمر ينسب بها أيضاً ، ويتدله فيها بأكثر مما تدله فى نسيبه

ولا شك أن هـذا الأسلوب فى النسيب ووصف الخمر ، لا يتفق مع ذلك الأسلوب الذى ينسب إليه فى دعوى النبوة ، ولا يمكن أن يحصل هـذا وذاك من شخص واحد ، لاختلاف نزعتهما ، وتباين المشارب فيهما ، واتجاه كل منهما إلى غاية تخالف الأخرى ، فهو فيما ينسب إليه فى دعوى النبوة رجل جد وصلاح ، مبعوث إلى هذه الأمة الضالة المضلة ، ويريد أن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ؛ وهو فى قرآنه يدعو إلى الايمان ، ويحارب الالحاد ، ولكنه فى شعره هازل خليع ، يدعو إلى الفسق والفجور ، وينغمس فى حمأة الضلال ، ويبلغ من أمره أن يستهتر بالايمان والتوحيد إلى هذا الحد فى قوله :

يترشفن من فمى رَشَفاتٍ هُنَّ فيه أحلى من التوحيد

وهذا البيت يذكر فيما يؤخذ على المتنبى من الالحاد فى الدين فكيف يتفق أن يأتى فى شعره وهو فى عهد يدعو فيه إلى التوحيد ويحارب الألحاد ويزعم فيه أنه نبى مرسل ؟

ثم يبلغ أيضاً من أمره عند ما أخذ فى وصف الخمر أن يقول فيها هذا القول :

كلُّ شيء من الدماءِ حرامٌ شُرْبُهُ ما خلا دم العنقود

فأى نبى هذا الذى يحلل الحرام ويحرم الحلال ؟ وأى ضلال يحاربه وهو يدعو إلى هذا الضلال ؟

وقد جاء البيت الأول فى بعض الروايات :

يترشَّفن من فَمى رَشفاتٍ هُنَّ فيه حلاوةُ التوحيد

وهو فى هذه الرواية أخف فى الاستهتار من روايته الأولى وهى الرواية المشهورة

فلما جاوز فى قصيدته هذا كله ، ووصل الى مقصوده من الفخر بنفسه وشكوى حاله ، وحمل نفسه على تحمل الصعاب فى سبيل آماله ، كانت آماله أشياء أخرى دنيوية ، ولم تكن هى الآمال التى تنسب اليه فى دعوى النبوة ؛ فليس لهذه الآمال ذكر هنا ، ولا تشتم لها فيه رائحة ، وانما هو هنا رجل يسعى فى اكتساب المجد ، ويكد فى طلب الغنى والمال ، ويشكو من اخفاقه فى هذا الطلب مع كثرة سعيه فيه :

ضاق صدرى وطال فى طلب الرِّزْ قِ قيامى وقَلَّ عنه قعودى
أبداً أقطع البلاد ونجمى فى نحوس وهمتى فى سُعُود

وهو أبداً مولع بذلك الاستهتار حتى فى مقام الجد ، فاذا أمر بطلب العز لا يفوته أن يقول إنه خير من الذل ولو كان فى جنة الخلد ، وأن يفضله ولو كان فى لظى على الذل

فاطلب العزَّ فى لَظى وذَر الذ لَّ ولو كانَ فى جنان الخلود

فمثل هذا لا يصح أن يكون من شخص يدعى النبوة ، ويدعو الناس الى العمل الذى يوصلهم الى نعيم الله فى الجنة . ولا فرق بينه فى هـذا وبين ذلك الشاعر الجاهلى الذى سبقه الى ذلك المعنى ، وكان له من جاهليته ما يهون من أمره فيه ، وهو ذلك الشاعر الذى يقول :

حكم سيوفك فى رقاب العذل وإذا بليتَ بدار ذلٍّ فارحل
دار النعيم بذلةٍ كجهنمٍ وجهنم بالعز أكرم منزلِ

وكذلك هذا الفخر لا يليق بمن يدعى النبوة :

إن أكن معجباً فَعُجبُ عُجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا تِرْبُ النَّدى ورَبُّ القوافى وسِمامُ العدى وغيظ الحسود

وهكذا نخرج من دراسة هذه القصيدة بيقين لا شك فيه ، أنها لا تتفق مع تلك النبوة المزعومة للمتنبى ، فاما أن تكون هذه القصيدة مختلقة عليه ، وإما أن تكون تلك النبوة مكذوبة . وإذا كانت هذه القصيدة للمتنبى باتفاق الفريقين المختلفين فى أمر نبوته ، فأن تلك النبوة تكون هى المكذوبة قطعاً

***

وهذه قصيدة ثانية للمتنبي ، قالها فى ذلك العهد الذى ينسب إليه فيه إدعاء النبوة :

ضيفٌ ألمّ برأسي غير محتشم … والسيفُ أحسن فعلاً منه باللمم
ابعِدْ بعدت بياضاً لا بياض له … لأنت أسودُ فى عيني من الظلم
بحبِّ قاتلتي والشيبِ تغذيتي … هواي طفلاً وشيبي بالغ الحلم
فما أمرُّ برسم لا أسائله … ولا بذات خمار لا تُريق دمي
تنفّست عن وفاءٍ غير منصدع … يوم الرَّحيل وشعب غير ملتئم
قبلتها ودموعي مزجُ أدمعها … وقبلتني على خوف فماً لفم
فذقت ماء حياةٍ من مُقبَّلها … لو صاب ترباً لأحيا سالف الأمم
ترنو إليَّ بعين الظبي مُجهِشةً … وتمسح الطَّلَّ فوق الورد بالعنم
رُويدَ حكمكِ فينا غير منصفةٍ … بالناس كلِّهم أفديك من حكم
أبديتِ مثل الذى أبديتُ من جزعٍ … ولم تجنّي الذى أجننتُ من ألم
إذن لبزَّكِ ثوبَ الحسن أصغرُه … وصرتِ مثلي فى ثوبين من سقم
ليس التعلُّلُ بالآمال من أربي … ولا القناعةُ بالإقلال من شيمي
ولا أظن بناتِ الدهر تتركني … حتى تسدَّ عليها طُرقها هممي
لم الليالي التي أخنت على جدتي … برقة الحال واعذرني ولا تلم
أرى أناساً ومحصولي على غنم … وذكر جودٍ ومحصولي على الكلم
وربَّ مال فقيراً من مُروَّته … لم يُثر منها كما أثرى من العدم
سيصحب النصلُ مني مثل مضربه … وينجلي خبري عن صمَّة الصَّمم
لقد تصبرتُ حتى لاتَ مصطبر … فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركنَّ وجوهَ الخيل ساهمةً … والحربُ أقومُ من ساقٍ على قدم
والطعن يُحرقُها والزجر يقلقها … حتى كأنَّ بها ضرباً من اللمم
قد كلَّمتها العوالي فهى كالحةٌ … كأنما الصَّابُ معصوب على اللجم
بكل مُنصلتٍ ما زال مُنتظري … حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلةً … ويستحل دمَ الحجاج فى الحرم
تنسى البلادَ بروقَ الجوِّ بارقتي … وتكتفي بالدم الجاري عن الدِّيم
ردِي حياضَ الرَّدى يا نفس واتركي … حياض خوف الردى للشاء والنَّعم
إن لم أذرْكِ على الأرماح سائلةً … فلا دعيت ابنَ أمِّ المجد والكرم
أيملك الملكَ والأسياف ظامئةٌ … والطير جائعة لحم على وضم
من لو رآني ماءً مات من ظمأ … ولو مثُلْتُ له فى النوم لم ينم
ميعادُ كلِّ رقيق الشفرتين غداً … ومن عصا من ملوك العرب والعجم
فان أجابوا فما قصدي بها لهم … وإن تولَّوْا فما أرضى لها بهم

وقد افتتح المتنبي هذه القصيدة بذم الشيب الذى ظهر فيه قبل أوانه ، فحل فى رأسه ضيفاً ثقيلاً غير محتشم ، وبدا بياضه فى عينه أسود من الظلم ، وقد أجتمع عليه بذلك أمران صارا له كالغذاء : حب مبكر فى عهد الطفولة ، وشيب مبكر فى بلوغه الحلم . ولا شك أن من يتبرم بالشيب هذا التبرم لا تحدثه نفسه بادعاء النبوة وما يلزم لها من إظهار الصلاح والتقوى ، والفرح بالشيب إذا أقبل ، لأنه كما قال بعض الحكماء : زهرة الحنكة ، وثمرة الهدى ، ومقدمة العفة ، ولباس التقوى . وأين قول المتنبي فى هذا من قول دعبل بن علي

أهلا وسهلا بالمشيب فأنه … سِمة العفيف وحلية المتحرّج
ضيف ألمَّ بمفرق فقريته … رفض الغواية واقتصاد المنهج

فمثل هذا هو الذى كان يقوله المتنبي فى الشيب لو صح ما ينسب اليه فى دعوى النبوة ، وهو الذى يتفق مع الغاية التى تنسب اليه فيها

ثم مضى المتنبي يتغزل على أسلوبه فى قصيدته الأولى ، يسأل كل رسم ، ويجري فى حب متنقل وراء كل ذات خمار ، وهو حب شهوي كحب ابن أبي ربيعة وغيره من الشعراء الذين تستهويهم كل ذات جمال ، ولا يعرفون فى حبهم شيئاً من الوفاء ، بل يتحدثون عن وفاء النساء لهن ولا يفون ، كما تحدث المتنبي عن ذلك فى قوله :

تنفست عن وفاء غير منصدع … يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

وقد يتفق لنبي أن يسمع هذا النوع من الغزل إذا كان بريئا كما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم فى سماعه قصيدة كعب بن زهير

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول … متيم إثرها لم يُفدْ مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا … إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة … لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت … كأنه منهل بالراح معلول
إخالها خلة لو أنها صدقت … موعودها أو لو ان الوعد مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها … فجع وولع وإخلاف وتبديل

ولكن فرقا كبيرا بين سماع هذا النوع من الغزل وإنشائه ، ورب شيء يقبل من شخص ولا يقبل من شخص أعلى منه ،

ورب حسنات فى ذلك تعد سيئات ، ورب سيئات تعد حسنات .

ولا شك أن مثل هذا الغزل لا حرج فيه على كعب رضى الله عنه ، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الاعتبار ، وإن لم يكن من شأنه هو أن ينشئه

ثم اقتضب المتنبى نسيبه اقتضابا ، وابتدأ مقصوده من قصيدته بقوله :

ليس التعلل بالآمال من أربى ... ولا القناعة بالاقلال من شيمى

فاذا هو فيه طالب دنيا لا أكثر ولا أقل ، وإذا به لا يرضى فى ذلك بالقليل ، وينفر من صفة القناعة التى حث عليها جميع الأنبياء قبله

وهو فى ذلك أيضا ثائر على دهره الذى يفقر مثله على مروءته وشجاعته ، ويغنى سواه على فقره من المروءة والشجاعة ؛ ثائر على تلك الدول التى أقامها فى عصره خدم العباسيين الذين كانوا يجلبونهم أرقاء فيصبحون ملوكا على الناس ، فهو يقيم الدنيا ويقعدها من أجل تلك المهازل فى نظره ، ويرى نفسه أعلى شأناً من هؤلاء الخدم ، وأحق منهم بهذا الملك الذى استأثروا به لأنفسهم

وهو هنا لا يتحدث عن عدل وجور كما يتحدث فيما ينسب فى دعوى نبوته ، بل يتعطش إلى الحرب والقتال كما يتعطش كل فارس جبار يعشق سفك الدماء ونشر الفساد فى الأرض

ولا يتحدث كذلك عن إيمان وكفر ، بل يتحدث عن خدم أقاموا لهم ملكا هو أحق به منهم لما امتاز به من المروءة والشجاعة عليهم

ثم تراه لا يقلع فى هذه القصيدة عن استهتاره ، وأخذه فيما يدل على ضعف دينه ، فيقول

بكل منصلت مازال منتظرى ... حتى أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ... ويستحل دم الحجاج فى الحرم

فالذى يقول هذا لا يمكن أن يأخذ وسيلته إلى الناس دعوى النبوة ، لأنها تقتضى منه شيئاً آخر غير هذا الاستهتار ، وتواضعاً فى القول غير هذا التجبر ، واقتصادا فى الحديث عن النفس غير هذا الاسراف فى الفخر

وسبيل هذه القصيدة بعد هذا سبيل القصيدة السابقة فى القطع بكذب هذه الدعوى على المتنبى ، لأنها تظهره فى ذلك العهد بخلاف المظهر الذى يظهر به فيما ينسب إليه فى دعوى النبوة وادعاء مثل هذه الدعوى من المتنبى فى علمه وذكائه تقتضى منه الحيطة فى أمره ، وتوجب عليه ألا يظهر بين الناس بهذا المظهر فى شعره ، حتى يصدقه الناس فى دعواه ، ويلتئم حاله فيها التئاما يخدعهم فيه

ويجب علينا بعد هذا أن نأخذ فى هذا اللقب بما نقله ابن جنى عن المتنبى نفسه ، وقد ذكرناه فيما سبق ، فلا نعيده هنا ، ولكننا نذكر فى ذلك مذهباً للأستاذ «محمود شاكر» رأى أنه أقرب إلى الصدق ، وأولى بالاعتبار ، وهو أن المتنبى نبز هذا النبز من أجل أنه كان فى أول أمره متورعا فى خلقه لا يخرج عن حدود الوقار ، متزمتاً لا يلين للشهوات ولا يلقى إليها بمقاده مترفعاً عن سفساف الأخلاق متمسكا بمعاليها ، آخذا نفسه بالجد الذى لا يفتر ؛ وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها ، فما كذب ولا زنا ولا لاط ، ولا أتى أمراً منكرا يؤخذ عليه ، أو يُزَنُّ به . واستمر على ذلك حياته كلها ، وخالف الأدباء والشعراء من أهل عصره فما شرب الخمر ولا حمل وزرها ، ولولا اضطراره فيما نرى لما حضر مجلسها . وكان الأدباء والشعراء فى ذلك الوقت أهل شراب ومعاقرة ولهو وهزل وباطل ، فلما وجدوا ما هو فيه من التعفف والتورع ، ووقعوا على كثرة دوران أسماء الأنبياء فى شعره ، وتشبيهه نفسه بهم ، نبزوه هذا النبز ، ولقبوه المتنبى يريدون المتشبه بالأنبياء

ولا شك أن هذا غلو من الأستاذ فى أمر المتنبى ، وقد روى عن بعضهم أنه عاشره فما رآه كذب ولا زنا ولا لاط ، ولكن هذا لا يكفى لأن يجعل منه الرجل الصالح الزاهد المتورع الذى يصفه الأستاذ محمود . على أن هذا الاشتقاق لا يدل على التشبه وإنما يدل على الادعاء ، وقد جاء فى القاموس (وتنبأ ادعى النبوة ومنه المتنبىء أحمد بن الحسين) وإنما يقال فى ذلك تأله ، لأن التأله التنسك والتعبد ، ولم يلصق هذا اللقب بالمتنبى إلا لأجل الكيد به ، وإيهام أنه ادعى النبوة ، ولهذا كان يكرهه المتنبى . ولو كان لهذه الأغراض المذكورة لفرح به وهش له ، والخطب فى هذا سهل بينى وبين صديقى الأستاذ محمود شاكر ، بعد اتفاقنا على أن هذه النبوة مختلقة على المتنبى ؛ وإنى لا أحب أن أثير فى هذا جدالاً بينى وبينه ؛ ولعله يتغاضى عن هذا الخلاف القليل بيننا ، ليكون ما ذكرناه هو القول الفصل فى هذا الموضوع حقا

عبد المتعال الصعيدى

تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصل الأول

— ٥ —

وإن نفس عاطفة الوطنية المتأججة فى صدر الهمدانى والتى بعثته على أن يخصص نفسه للبحث العلمى قد أوحت إلى نشوان ابن سعيد — الذى ينتمى من ناحية الأب إلى أسرة قديمة من أشراف اليمن — أن يتذكر الماضى الخرافىّ ويتعلق بأحياء مجد أمبراطورية زالت معالمها ودرست آثارها . وإنه ليتغنى فى « القصيدة الحميرية » بعظمة وقوة أولئك الحكام الذين تبوأوا عرش أمته ، ويؤوّل فى روح إسلامية حقة حقيقية الفناء والحياة ، وحقارة المطامع البشرية[1] ، ومع أن هذه القصيدة فى ذاتها قليلة القيمة فانها تعتبر وثيقة قيمة — نوعاً ما — لاشتمالها على أسماء الملوك[2] ، ومعها شرح تاريخى واف إمّا أن يكون كاتبه نشوان نفسه — وهذا ما يرجحه فون كريمر — أو أحد معاصريه . والذين لا يرون التاريخ إلا مجمل حقائق لن يجدوا مأربهم فى هذا التعليق ، إذ نرى خيوط الحقيقة معقدة متشابكة مع أساطير خرافية مكذوبة ، وقد وضع القصّاصون فى فجر الاسلام صورة حرفية لمثل هذه الأساطير ، من ذلك أن أحد عرب الجنوب واسمه « عبيد بن شرْية » زار دمشق تلبية لدعوة الخليفة معاوية بن أبى سفيان الذى سأله « عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس فى البلاد[3] » وطلب اليه أن يكتب وأمر أن تجمع وتكتب إجاباته كلها ثم تنشر باسمه ، وهذا العمل الذى لم تصلنا منه أية نسخة للأسف كان يسمى « كتاب الملوك وأخبار الماضين » وقد تكلم عنه المسعودى[1] (٩٥٦ م) ككتاب معروف متداول فى محيط كبير ، كما اعتمد عليه فيما بعد شارح « القصيدة الحميرية » إما مباشرة أو بواسطة الاكليل للهمدانى .

وقد نعتبره — كما اعتبره الشارح نفسه — كقصة تاريخية لكثير من شخصياتها وحوادثها أساس من الحقيقة والواقع قد مُوّهت بكثير من القصص الخيالية والقصائد المكذوبة ، مما يجد فيها السّامر خير عون له على أداء مهمته . ومن بين المؤلفين المسلمين القلائل الذين اهتموا بدراسة تاريخ عرب الجنوب فى العصر السابق للاسلام حمزة الأصفهانى ، ويمدّنا الكتاب الثامن من تاريخه (الذى انتهى منه عام ٩٦١ م) بتفاصيل تاريخية دقيقة موجزة عن التبابعة أو ملوك اليمن الحميريين

***

خلف قحطان — جدّ أعراب الجنوب — ابنه يعربُ الذى يقال إنه أول من اتخذ العربية لسانا ، وأول من أخذت له التحايا التى اعتاد العرب أن يحيوا بها ملوكهم كقولهم « أنعم صباحا » و « أبيْت اللعن » وقد اشتهر حفيده عبد شمس سبأ باسم مؤسس مأرب وبانى سدها المشهور ، وإن كان هناك آخرون يقولون إن مؤسسه هو لقمان بن عاد ، وكان لسبأ ولدان حمير وكهلان ، وقبل موته عهد إلى حمير بالجلوس على العرش وإلى كهلان بحراسة التخوم ، وشنّ الغارات على الأعداء ؛ ومن ثم كانت لحمير السيادة واتخذ اسم « أبو أيمن » وأقام فى عاصمة المملكة بينما تعهّد كهلان بالدفاع عنها وتدبير الحروب[2] وبالاغضاء عن سرد سلسلة نسب الملوك السبئيين الخرافيين الذين لا تذكر القصة عنهم إلا قليلاً جدا ، فانا نمضى إلى ذكر حادثة رسخت فى أذهان العرب رسوخاً لا يمكن استئصاله منها ، ألا وهى الحادثة المعروفة عندهم بسيل العرم أو فيضان السدّ

(١) Die Hinjarisdhe Kasidsh herausgegaben und übersetzt von Alfred von Kremer (Leipzig, 1865) . W. F. Lrideaux: The Lay of the Himyarites (Sshose, 1879)

(٢) كان نشوان عالما لغويا شهيرا ، وإن قاموسه الكبير « شمس العلوم » لخير عون لمن يدرسون آثار عرب الجنوب ، وقد اعتمد عليه D. H. Müller فى تصحيح أسماء الأعلام التى وردت فى « القصيدة الحميرية » وقد قام الدكتور عزم الدين أحمد بطبع مقتطفات من « شمس العلوم » تتعلق باللغة العربية الجنوبية (E. S. W. Gibb Memorial Serie, vol. xylv.)

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٨٩ س ٢٦

(١) ومما قاله المسعودى « ولم يصح عند كثير من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر عبيد بن شرية وأخباره عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والأحداث وتشعب الأنساب ، وكتاب عبيد بن شرية فى يد الناس مشهور » راجع « مروج الذهب طبعة باريه دى مينارد ج ٤ ص ٨٩ » (المترجم)

(٢) Von Kremer : Die Tüdarabische Sage, P. 56

ومن الممكن أن تكون هذه القصة (كما يرى كريمر ص ١١٥) رمزاً لحقيقة ثابتة تلك هى تشعب السبأيين الى فريقين كبيرين : حمير وكهلان وقد كانت القوة فى يد الأول

على بضعة أميال قلائل من الجنوب الغربي لمأرب تمتد الجبال متلاحمة تاركة فيما بينها أخدوداً يشقه نهر « أدنة » الذى يجف غالباً مجراه خلال فصل الصيف ؛ أما فى الشتاء فتسقط الأمطار الغزيرة وتتدفق المياه بقوة هائلة تكاد لا تحتمل ، فلكى تكون المدينة بمنجاة من الفيضان ولأجل تنظيم الرى وزرع الأرض وفلحها بنى الأهالى سداً من الحجر الصلد استرعى خيال محمد بعد أن دمر تماماً ، وعده المسلمون إحدى عجائب الدنيا[1] . وليس بغريب أن ألبس مؤرخوهم تلك الحقيقة المجردة (انفجار السد) ثوب حادثة فضفاضة طريفة[2] وإذ آذنت شمس القرن الثالث للميلاد بالمغيب[3] أو قبل ذلك بقليل كان يتربع على عرش مأرب عمرو بن عامر ماء السماء المزيقيا[4] ، وكانت زوجته « ظريفة » ماهرة فى علم الكهانة خبيرة بفنونها ، وقد رأت أحلاما ورؤى تنبىء عن شر جسيم يتهددهم ، وفى ذات يوم قالت لزوجها الذى لم يكن يثق فى عرافتها : « إمض إلى السد فان أبصرت فأراً[5] ينبش السد بمخالبه ويقذف قطعاً كبيرة من الصخور بقدميه الخلفيتين فتيقّن بأن العذاب قد حلّ بنا » فمضى عمرو إلى السد وأنعم النظر فشاهد جرذاً يحرك حجراً كبيراً يعجز خمسون رجلاً جلداً عن نقله من مكانه فأيقن عمرو أن السد منهار ، وأن الأرض لابد هالكة بمن عليها ، فعزم على بيع أملاكه والرحيل بعائلته ، لكنه خشى أن يبعث الاضطراب إلى قلوب السكان ، فدبر حيلة ناجحة ، ذلك أنه دعا أشراف المدينة ورؤوسها إلى وليمة فاخرة مدها لهم ، واتفق مع ابنه أن يثيرا الخلاف بينهما (أو بينه وبين اليتيم الذى درج فى بيته كما يقول آخرون) وتبودلت بينهما الضربات فصاح عمرو : « وافضيحتاه !! أفى يوم مجدى ونخرى يسبنى ويلطمنى غلام عاق ؟ » ثم أقسم أن يقتل الفتى ، فتوسل إليه ضيوفه أن يرحمه ويرأف به فأجابهم ، بيد أنه أقسم قائلاً : « لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى وسأبيع أرضى ومتاعى » وإذ نجح فى الخلاص من أعبائه — إذ لم يعدم مشترين لبوا دعوته واغتنموا غضبته — لم يتردد فى أن يخبر الناس بما يتهددهم من بلاء ثم بارح مأرب على رأس جمع حشيد ، ثم أخذت المياه تثقب السد شيئاً فشيئاً وتغمر الأرض ، مرسلة فى لجتها الدمار طولاً وعرضاً ، ومن هنا نشأ المثل القائل « تفرقوا أيدى سبأ » أى تشتتوا كما تشتت قوم سبأ[1]

وإن ذلك الطوفان ليؤرخ فترة من تاريخ بلاد العرب الجنوبية ثم غاضت المياه واخضرت الأرض بعد المحال وعادت إلى الايناع والزرع ، بيد أن مأرب ظلت مهجورة ، واختفى السبئيون إلى الأبد إلا ما يذكره الأعشى فى قصيدة له من قوله[2]

وفى ذَاكَ لِلْمُؤتَسِى أُسْوَةٌ ... وَمَأْرِبُ عَضَّ عليها العرِمُ
رُخَامٌ بَنَتْهُ لهم حِمْيَرٌ ... إذا جاء مَوَّارُهُ[3] لم يَرِمِ
فأرْوَى الزُّروعَ وأعنابَها[4] ... على سِعَةٍ مَاؤهَا إذْ قُسِم
فَصَارُوا أيادِيَ ما يَقْدِرون ... مِنهُ على شُرْبِ طفلٍ فُطِم

وليست فى كلام الشاعر عن حمير دقة تاريخية ، أما الحميريون وعاصمتهم ظفار (صنعاء فيما بعد) فقد صاروا حكام اليمن بعد

(١) لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) « ٣٤ : ١٥ — ١٦ من القرآن » أما الخرائب الباقية فقد وصفها Arnaud فى الجريدة الأسيوية المجموعة السابقة ٣٢ (١٨٧٤) ص ٣ ومابعدها

(٢) راجع مروج الذهب (طبعة باربيه دى مينارد) ج ٣ ص ٣٨٧ وما يليها والنويرى Pimoe lineoe Rerum Arab icarum ص ١٦٦ وما يليها

(٣) ربما كان لقصة الهجرة من مأرب — التى ذكرت — أساس تاريخى ولكن السد نفسه لم يتهدم كله إلا بعد دهر طويل ، وإن النقوش التى عثر عليها منحوتة فى الصخور الباقية منه ليستدل منها على أنه ظل قائما حتى منتصف القرن السادس الميلادى وإن أول فيضان معروف قد وقع بين عامى ٤٤٧ — ٤٥٠ م كما أعاد بناء بعض أجزاء السد « ابرهة الحبشى » والى اليمن بين ٥٣٩ — ٥٤٢ م . راجع ذلك فى « كتابات فى انفجار سد مأرب لجلاسر »

E. Glaser: Zuli Inachaiften ueber den Dammbruch von Mârip (Mitteilnngen der Vorderasiatischen Gesellschaft. 1897,)

(٤) يقول الأستاذ نيكلسون إنه كان من عادة عمرو بن عامر أن يمزق ثوب نهاره كلما جن المساء . أما صاحب كتاب « التيجان فى ملوك حمير » فيقول « سمى مزيقيا لأنه كانت تنسج له فى كل سنة ثلثمائة وستون حلة ثم يأذن للناس فى الدخول فاذا أرادوا الخروج استلبت عنه وتمزق قطعا ولذلك سمى مزيقيا » ص ٣٦٢ طبعة حيدر أباد الدكن سنة ١٣٤٧ هـ (المترجم)

(٥) وقد قال فى ذلك أحد الشعراء :

وقد هد قدما عرش بلقيس هدهد ... وخرب حفر الفأر سداً لمأرب

(المترجم)

(١) Freytag: Arabum Proverbia, Vol I, P. 497 وترجمته هكذا

Abiesunt tanquam agmina Sabaeorum; et dispersi sunt tanquam agmina Sabaeorum

(٢) الهمدانى : الأكليل الكتاب الثامن طبعة ميللر فى S.B.W.A, فى فينا ١٨٨١ ج ٩٧ ص ١٠٣٧ ، وقد نقل هذه الأبيات ياقوت الحموى فى شىء من التغيير فى معجمه (طبعة وستنفلد) ج ٤ ص ٣٨٧ وابن هشام ص ٩

(٣) بفتح الميم وبعضهم يرويه بالضم والفتح أصح مأخوذ من قوله تعالى « يوم تمور السماء مورا »

(٤) قوله « فأروى الزروع وأعنابها » أى أعناب تلك البلاد (ابن هشام)

انفجار سد مأرب وتلاشى السبئيين الذين أقاموه (١)

أما تبع الأول — الذى أطلق لقبه مؤرخو المسلمين على من خلفه من ملوك حمير فيسمى « حارث الرائش » لأنه زين بيوت قومه بالغنائم والأسلاب مما جابه معه — كفاتح — من الهند وأزربيجان (٢) ، أما عن التبابعة الذين ولوا الحكم بعده فان بعضهم يدين بدرجه فى سلسلة حمير إلى النسابين الذين كان احترامهم للقرآن يفوق دقتهم النقدية كما حدث مثل هذا بشأن المخلوق الخرافى صعب ذى القرنين ، وإن الأبيات التالية لتخلط بينه وبين ذى القرنين العجيب الوارد نبؤه فى القرآن والذى يعتبره معظم المفسرين نفس الأسكندر الأكبر (٣)

لنا مُلكُ ذى القرْنين هلْ نالَ مُلكَهُ
مِن البشرِ المخلوقِ خلقٌ مُصورُ ؟
نوى ثمَّ يتلو الشمسَ عِند غرُوبها
لينظُرَها فى عينِها حينَ تُدْحرُ
ويسمُو إليها حين تطلع غُدْوَةً ليلمحها فى بُرجها حينَ تظهرُ
دليلاً بأسبابِ السماءِ نهارهُ (٤) وليلاً رقيباً دائماً ليسَ يفترُ

(١) وقد وجد الوصف التالى محفورا على حجر من القراميد الصخرية التى وصفها أرنود فى الجريدة الأسيوية بعمريين (بتشديد الياء وكسرها) ابن سمه على ينوف أمير سبأ قد ثقب جبل البلق وبنى السدود (وتسمى رحب) لتنظيم الرى وميللر (المرجع السابق ص ٩٦٥)

(٢) لم ترد بتاتا كلمتا « حمير وتبع » فى النقوش القديمة ، أما فى الحديثة فلم ترد إلا قليلا جدا

(٣) يقصد ما جاء فى سورة الكهف (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) (المترجم)

(٤) وصف الهمدانى فى كتابه جزيرة العرب (ص ٣٦ س ١٠) ذا القرنين بأنه « مساح الأرض » وإذ نترك مجال التاريخ الأدبى لحظة لأشرح الخرافة التى تشرئب من خلال هذه الأبيات ، فيظهر لى أن « ذا القرنين » إنما يقصد به الألهة السبئية « عشتر » التى تمثل « نجمة الصباح الجميلة » (راجع ما كتبه D. H. Muller فى S. B, W. A. مجلد ٩٧ ص ٩٣٢ وما يليها) ونجد فى النقوش المينية « عشتر الجالسة وعشتر الواقفة » (شرحه ص ١٠٣٣) أضف الى ذلك أن عشتر والمقه يذكران فى أقدم النقوش دائما مقرونين بعضهما ببعض . أما « المقه » (وهى فينوس أو الزهرة كما يذكر الهمدانى) فيعتبرها علماء الآثار القديمة من العرب بلقيس ، أما عن « قرن » بمعنى « أشعة أو ضوء » فراجع ج ١ ص ١١٤ من كتاب جولدزيهر Abhand - zur Arab. Philologie ولا يحوم كثير من الشك فى إضافة اسمى « ذى القرنين وبلقيس » إلى الأمثلة العدة لهذا التغيير الذى بواسطته استطاعت كثير من آلهة الوثنية أن تظل قائمة فى ظل الاسلام بعد أن تنكرت بأسماء مختلفة

وأرْصدَ سدًّا من حديدٍ إذا بدا ومن عينِ قطرٍ مترعاً ليسَ يظهرُ
رَمى فيهُ يأجوجاً ومأجوجَ عُنْوةً
إلى يوْمَ تُدْعى للحساب وتُنشرُ (١)

(يتبع) ترجمة حسن حبشى

(١) Von Kremer Altarabis-che Gedichte ucber qei Vol-kssage von Jemen P. 15 (No. viii, 6 seg)
وهذه الأبيات لحسان بن ثابت شاعر الرسول

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

— ٣ —

— ٧ —

وأمسى المساء مرخياً سدوله على الساحة فتفرق عنها المتفرجون وقد أرهقهم الفضول والرعب، وبقي زارا جالساً على الأرض قرب الميت فاستغرق في تفكيره ناسياً مرور الزمان حتى هبت نفحات الليل عليه منفرداً، فناجى نفسه قائلاً:

لقد كان صيدك موفقاً اليوم يا زارا! لقد أفلت الناس منك فاصطدت جثة هامدة

إن حياة الانسان محفوفة بالأخطار، وهي فوق ذلك لا معنى لها... فإن مهرجاً يمكن أن يقضي عليها

أريد أن أعلم الناس معنى وجودهم ليدركوا أن الانسان الكامل إنما هو البرق الساطع من الغيوم السوداء من الأنسان

ولكنني لم أزل بعيداً عن هؤلاء الناس وفكرتي بعيدة عن مداركهم، فأنا لم أزل متوسطاً المدى بين مجنون وجثة هامدة

إن الليل مظلم ومسالك زارا مظلمة أيضاً. تعال أيها الرفيق المتيبس في حقيقته! إنني ذاهب بك إلى حيث أواريك التراب بيدي

— ٨ —

ورفع زارا الجثة على كاهله ومشى، ولكنه ما قطع مائة خطوة حتى زحمه رجل؛ وما كان هذا الرجل إلا مهرج البرج، فأسرّ اليه في أذنه:

— اذهب من هذه المدينة يا زارا فان مبغضيك فيها كثيرون. هنا يكرهك أهل الصلاح والعدل، فيصفونك بالعدو والمُزدري، ويكرهك المؤمنون بالدين الحق فيرون بك خطراً على عامة الناس، وقد كان من حظك أن هزأ الحشد بك لأنك كنت تتكلم كالمهرّجين، وكان من حظك أيضاً أن اشتركت والكلاب الميت، فقد كان خلاصك هذه المرة في إسفافك إلى هذه المهاوي، ولكنك لن تسلم في الثانية فاذهب من هذه المدينة وإلا فانني قافز غدا فوق جثة أخرى

قال الرجل هذا وتوارى وتابع زارا سيره في الشوارع المظلمة. ولما بلغ باب المدينة التقى حُفَّار القبور فوجهوا إلى رأسه أشعة مصابيحهم وإذ عرفوا فيه زارا أشبعوه سخرية وهزءا وقالوا:

— مرحى يا زارا! لقد صرت الآن حفاراً للقبور؛ إنك تحمل الكلاب الميت. لقد أحسنت، فان أيدينا أطهر من أن تدنس بجثته. أتريد يا زارا أن تختلس من الشيطان طعامه؟ كل هنيئاً! ولكن الشيطان أمهر منك، ولعله يسرقكما كليكما فيلتهمكما التهاما

ودار حفار القبور بزارا يتفرسون فيه. أما هو فلزم الصمت وسار في طريقه. وبعد أن مشى ساعتين يقطع الأحراج والمستنقعات، شعر بالجوع لكثرة ما عوت حوله الذئاب الجائعة، فوقف أمام بيت منفرد لاحت له الأنوار من نوافذه. وقال: لقد عضني الجوع وداهمني كاللص بين الأحراج في الليل البهيم

إن لجوعي نزوات مستغربة وقد يداهمني حتى بعد الطعام، ولكنه اليوم ندّ عني منذ الصباح حتى المساء فأين كان هذا الجوع؟

وطرق زارا باب البيت فظهر له منه شيخ يحمل مشعلاً، وقال له: من الآتي إليّ وإلى رقادي المضطرب؟

فأجاب زارا: أتيناك اثنين حيّ وميت، أعطني مأكلاً ومشرباً فقد نسيت الغذاء النهار بطوله، إن من يشبع الجياع يولي نفسه قوة، هكذا قالت الحكمة

فغاب الشيخ وعاد بخبز وخمر وقال:

— إنها لأماكن موحشة للجياع، وذلك ما دعاني إلى السكن هنا حيث يهرع إليّ البشر والحيوان في وحدتي. أفلا تدعو رفيقك ليأكل ويشرب معك فهو أشد تعباً منك

فقال زارا: إن رفيقي ميت ولا يسهل علي اقناعه بتناول الطعام.

فتمتم الشيخ: ذلك لا يهمني؛ إن من يطرق بابي عليه أن يأخذ ما أقدمه له. كلوا هنيئاً

وعاد زارا إلى السير فمشى ساعتين أيضاً وهو يهتدي إلى رسوم الطريق بنور النجوم، وقد كان معتاداً السرى ويحب أن يتفرّس في كل شيء راقه. وعند ما لاح الصباح كان زارا وصل

إلى غابة كثيفة حيث انقطع كل طريق أمامه ، فتوقف ووضع الجثة في فراغ شجرة حواها حتى رأسها ليقيها هجمات الذئاب ، ورقد بعد ذلك متوسداً نبات الأرض وما عتم حتى استغرق في نومه منهوك الجسم مرتاح الضمير

— ٩ —

وطال نوم زارا حتى غمرت وجهه أنوار الضحى بعد أن داعبته تباشير الفجر ففتح عينيه مبهوتاً وسرح أبصاره على الغاب ثم حولها يستكشف نفسه ساكناً مستغرباً

وهبّ من مجلسه فجأة كما يهبّ الملاح تبدو لعينه الأرض ، فهتف وقد هزّه المرح لأنه اكتشف حقيقة جديدة فخاطب قلبه قائلاً

لقد انفتحت عيناي . إنني بحاجة إلى رفاق أحياء لا إلى رفاق أموات وجثث أحملهم إلى حيث أريد

إنني أطلب رفاقاً أحياء ليتبعوني لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم أيان توجهت

لقد انفتحت عيناي ، ليس على زارا أن يخاطب جماعات بل عليه أن يخاطب رفاقا ، يجب ألا يكون زارا راعياً للقطيع وكلباً له

إنني ما جئت إلا لأخلص خرافاً عديدة من القطيع ، وسوف يتمرد الشعب والقطيع عليّ . إن زارا يريد أن يعامله الرعاة معاملتهم للصوص

قلت رعاة غير أنهم يدعون بالصالحين والعادلين . قلت رعاة غير أنهم يدعون بالمؤمنين بالدين الحق

أنظروا إلى أهل الصلاح والعدل لتعلموا من هو ألدّ أعدائهم ، إنه من يحطم الألواح التي حفروا عليها سننهم ذلك هو الهدّام ذلك هو المجرم — غير أنه هو المبدع

أنظروا إلى المؤمنين بجميع المعتقدات تعلموا من هو ألد أعدائهم إنه من يحطم الألواح التي حفروا عليها سننهم ، ذلك هو الهدام ، ذلك هو المجرم غير أنه هو المبدع

إليّ بالرفاق . إنني أطلبهم مبدعين ولا أطلبهم جثثاً وقطعاناً ومؤمنين

إن المبدع لا يتخذ له رفاقا إلا من كانوا مثله مبدعين ، إنه يتخذهم ممن يحفرون سنناً جديدة على ألواح جديدة

إن من يطلب المبدع إنما هم الحصّاد يعاونونه في الحصاد لأن كل شيء قد أصبح في عينه ناضجاً للحصاد ، ولكن المائة منجل ليست بين يديه فهو يتميز غضباً ويقتلع السنابل من أصولها

إن المبدع يطلب رفاقاله بين من يعرفون أن يشحذوا مناجلهم ، وسوف يدعوهم الناس هدّامين ومستهزئين بالخير والشر ، غير أنهم يكونون هم الحاصدين والمحتفلين بالعيد

إن زارا يطلب من كانوا مثله مبدعين يشاركونه في الحصاد وفي الراحة فلا حاجة له بالقطعان والرعاة وأشلاء الأموات

وأنت يا رفيقي الأول ، ارقد بسلام لقد أحسنت دفنك في فراغ الشجرة ووقيتك افتراس الذئاب

غير أنني سأفترق عنك لأن الزمان قد مر سريعاً ، وقد انبثقت حقيقة جديدة في أفق نفسي مابين فجرين

لن أكون راعياً ، ولن أكون حفار قبور ، ولسوف لا أقف بعد الآن في الجماعات خطيباً فقد وجهت آخر حظي إلى ميت

أريد أن أنضم إلى المبدعين ، إلى أولئك الذين يحصدون ويرتاحون فأريهم قوس قزح والمراتب التي يرقاها الواصلون إلى الأنسانية الكاملة

سأهتف بنشيدي للمعتزلين ولمن يشعر بمثنويته في انفراده أنني سأملأ بغبطتي قلب كل من له أذنان تصغيان إلى مالم تسمعه أذن بعد

إنني أسير إلى هدفي وأتبع طريقي فأقفز فوق المترددين والمتأخرين ، وهكذا سيكون سيري جنوحا إلى الغروب

— ١٠ —

وكان زارا يناجي نفسه بهذا القول والشمس في الهاجرة وإذا به يسمع صوتاً جارحاً في الفضاء ولاح له نسر يعقد حلقات في طيرانه وقد تعلقت به أفعى وما كان يقبض عليها بمخلبيه كفريسة ، بل كانت ملتفة حول عنقه التفاف المحب

فهتف زارا والحبور يملأ فؤاده : هذان نسري وأفعاي ، فهو أشد الحيوانات افتخاراً ، وهي أشدها مكراً تحت الشمس ؛ وكلاهما ذاهبان مستكشفين في الفضاء ليعلما ما إذا كان زارا لم يزل في

على شواطئ البسفور

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

هنا الدنيا هنا الدنيا   ألا ما أحسن المَحْيا
رُواء كفم الصّبح   إذا افترّ عن الفجر
على الأفق، على الروض   على البرّ، على البحر
كأن الأرض قد قامت   على الرقصة والزّمر
سرور أينما سرت   وعرسٌ لم يزل يجرى
فيا عاشق دنياه ...   هنا الدنيا، هنا الدنيا

* * *

صفاء الأفق كالبحر   ولون البحر كالأفْق
فمن يرنو إلى تحتٍ   كمن يرنو إلى فوق
يشيم الأفق مطبوعاً   على البحر بلا فرق
كأن البحر دون الأفــق أمسى مطلق الزرق
فيا عاشق دنياه ...   هنا الدنيا، هنا الدنيا

* * *

رباع كجنان الخلــد   لا حرٌّ ولا برد
حباها فى ضحى آب   كما ينفحه الورد

الحياة، فهل أنا لم أزل حياً بعد؟

لقد اعترضنى من المخاطر بين الناس ما لم أجد مثله بين الحيوانات؛ إننى أتبع السبل الخطرة فلأقتدين بنسرى وأفعاى

وتذكر زارا حينئذ القديس المنعزل فى الغاب فتنهد وقال:

لأكونن أوفر؛ حكمة لأكونن ماكراً كأفعاى؛ غير أننى أطلب المستحيل لذلك أتوسل إلى افتخارى أن يلازم حكمتى ولا ينفصل عنها

وإذا ما تخلت حكمتى عنى يوماً وهى تتوق إلى الطيران وا أسفاه فاننى أرجو أن يطير افتخارى مستصحباً جنونى

وهكذا بدا جنوح زارا إلى المغيب

(يتبع)   فليكس فارس

فروض أرج العطر   وجوّ غَنِجٌ سعد
أنيق الوشى كالجيد   إذا زيّنه العقــد
فيا عاشق دنياه ...   هنا الدنيا، هنا الدنيا

* * *

يحار الفكر إن جال   بما يشهد من حسن
فما يؤثر أو يهوى   ومايبعـد أو يدنى!
إذا أعجبـه مرأى   رأى أعجب فى الشأن
فلا ينفك مسحوراً   كمأخوذ ابنة الدنّ
فيا عاشق دنياه ...   هنا الدنيا، هنا الدنيا

* * *

شهدت الحسن مطبوعا   كما أبصرت مصنوعا
ورمت الحب مبذولاً   فما صادفت ممنوعا
وشِمْت الخلد مرئيا   وكان الخلد مسموعا
وألفيت شــتات الحسـن فى «البسفور» مجموعا
فيا عاشق دنياه ...   هنا الدنيا، هنا الدنيا

* * *

حسان كعذارى الخلـد يمرجن زُرافات
كأنّ آذار أبداهن   فى الآفاق باقات
فهن الزهر فى الروض   نشرن الحسن طاقات
وهن الزُّهر فى الأفق   نزلن الأرض غادات
فيا عاشق دنياه ...   هنا الدنيا، هنا الدنيا

* * *

كأن الدهر بالغادا   ت كالأزهار نيسان
فهل غاب عن الخلد   رقيب الخلد رضوان
نشاوى مثـل رائيهـن بالاعجاب نشوان
يمِّمن ربوع الأنـس حيث الحب ألحان
فيا عاشق دنياه ...   هنا الدنيا، هنا الدنيا

* * *

أغانٍ وأغاريد   لها يطرب محزون

بلحن الطير في الأيك يناغيهن قانون
تثير الروح بالشدو كما ينشر مدفون
تغنّيها الرياحين كما استضحك مفتون
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

لديها متعة السمع وفيها شهوة العين
تعالى الله ما أقد ر أن يجمع حسنين
وما أحسن أن تلتذ (م) باثنين شهيين
بريئين بلا إثم جميلين بلا شين
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

حياة لم ينغصها سوى ذكرى لأوطاني
أرى البسفور بساماً فأبكي ثغر « بغدان »
نبا من أفقها الحسن ولم تنعم بعمران
كأن لم تك في الدهر جمال العالم الفاني
فيا شقوة «بغداد» إذا لم تشبه الدنيا !

(بغداد) محمد بهجة الأثري

في شعاع الفجر

مناجاة زهرة

بقلم أحمد فتحي مرسي

إيه يا زهرتي ! لقد أقبل الفجـ ـرُ يفيض الضياء من بسماته
والشعاع الحبيب قد فاض في القلـ ـب فأحيا الدفين من أمنياته
والنسيم الرخيُّ يعبث بالغصـ ـن ويثني الندىّ من زهراته
قد مضى يوقظ الزهور ويسري طابعاً فوق ثغرها قبلاته
رقّ حتى كأنه لمسة الطفـ ـل ومسُّ الرقيق من أنملاته
والفَراش الوديع يرتشف الضو ء ويروى صداه من لحاته
يلتوي كالقطاة أخطأها الرا مي فراحت تحيد عن رمياته
والرياحين هامسات إلى المر ج كهمس الضمير في خلواته
قائمات على الربى ساجدات كسجود التقي في صلواته
كلُّ ما في الوجود يا ملكة الرو ض يشعُّ الجمال من قسماته

***

إيه يا زهرتي ! لقد أشرق الرو ضُ وسال الندى على وجناته
فارشفي النور من سنا الصبح رفا فا تلذ النفوس من رشفاته
وابسمي فالحياة حلم ويمضي ويفيق الفؤاد من سكراته

***

إيه يا زهرتي ! لقد صدح الطيـ ـر فهز الوجود من صدحاته
فاض في النفس لحنه فشجاها وأذاب الفؤاد من نغماته
فهبيه من وجهك الطلق وحيا يتملى من سحره أغنياته

***

إيه يا زهرتي ! لقد أسفر الكو ن وراق الجمال في جنباته
لم تبكين ؟ جفّفي ذلك الدمـ ـع وصوني عن البكا قطراته
لا يرُعك الزمان إن نثر الزهـ ـر وأفنى النضير من ورقاته
لا يرعك العذابُ إن ملأ الكو ن فكلٌّ معذب في حياته

(القاهرة) أحمد فتحي مرسي

القصص

تذكرة ســــفر
من طنطا الى سقر
للأستاذ ابراهيم جلال بك

وكيل محكمة الزقازيق الأهلية

كان باحدى ضواحى مدينـة طنطا قروى له فتيان أحدهما جميل المحيا ، مفتول العضل ، تام الرجولة ، كأبيه فى الاستقامة والدأب على حرث الحقل ورعاية الماشية واسمه حسن . أما الآخر وهو يونس فكان على نقيض أخيه ، خامل الذكر ، دائم التاهى بمعاكسة جيرانه ، يسد مسيل الماء عنهم ، ويسرق أمطار الذرة ، ويسلبهم دجاجهم وسائر ما يكنزون

وكان أبوهما مصطفى كهلاً أرمل ، ولكنه عرف بالنجدة وصلابة العود ، قد أخرجته الجندية متين البدن ، وأكسبته سكنى المروج الخضر حدة فى البصر

وماتت زوجته والغلامان فى الطفولة الأولى ، وكان قد ادخر بقية من نقود الجندية فابتاع بها حقلاً زرعه نصف فدان وأحسن القيام عليه حرثاً وإنباتاً ، وأقام تحت ظلال صفصافة عالية كوخاً صغيراً وسده بالحشائش الجافة وأضجع فيه طفليه واتخذ حوله سياجاً من قصب الذرة ، ومهد فى ناحية من السياج مناخاً للدواب أسكن به شاة ذات أحمال وعنزات صغار . وكان الشيخ قد عرف بحسن الرماية وإحكامها من عهد أن كان فى مصاف الجيش ، ولديه قلائد الشرف حازها بحسن بلائه وبسالته فى فتوح السودان . وقد رآه أهل القرية غداة العيد يحمل تلك القلائد ويخطر فى الدرب عند باب العمدة كما شهد له العمدة بحسن السمت حين حياه مسلماً فى أدب الجند وسكينتهم ، وحين تناول قدح القهوة ثم انقلب إلى كوخه الصغير بين غلاميه وماشيته

وكان مصطفى قد اتخذ لنفسه محراباً للعبادة فى ظل تلك الشجرة ، فاذا انشق الفسق عن غرة الفجر قام إلى قناة الماء فاغتسل ثم جثا فى المحراب بقلب سليم ، وكان هذا حاله فى المواقيت الخمسة

فكان الله فى عونه حتى ترعرع الغلامان ، وجاوز حسن سن الخامسة عشرة ولحق به أخوه يونس ، وزكا الزرع ودر الضرع وسال النضار بكف الشيخ مسيل الماء فى حقله ، فلم تطغه أخلاف الرزق وسعة العيش ، وعكف على تثقيف ولديه فى مكتب القرية ، فحذق حسن فن الكتابة والحساب ؛ أما أخوه فكان غافل اللب ، ينسل من المكتب مع رفقة له فيتسكعون فى دروب القرية حتى خرج غراً جاهلاً لا يحسن شيئاً ، ولم تجد فيه نصائح أبيه الشيخ ، ولا نالت منه سياط التأديب ولا وجيفة القيد ؛ فكان يفر من الكوخ ويبيت ليله بالعراء . وكان حسن يتميز رحمة وحناناً بيونس ؛ وكم كان يتقى بساعديه سياط أبيه ويقاسم أخاه بلاء التأديب

وطرقهم طارق بليل ، وكانت ليلة قرها زمهرير وريحها عاصف ، فهرت كلابهم بباب الكوخ ونهض الشيخ إلى غدارة له بالجدار عامرة بأسباب الموت . وكان حسن قد نما عوده ، واستقام كاهلاه كأحسن ما تقوم أبدان الرجال ، فتصدى لأبيه وتناول منه آلة الموت ، وخرج إلى الفناء وأبوه يرقبه بعينى صقر وبيده هراوة

ورأى حسن شبحا قد التقط حملين من الخراف ، وتجاوز السياج بهما فانطلق فى أثره حتى حاذاه ، وسدد اليه القذيفة ، ولكنه تعرف السارق فى عدوه ، ولمح من وميض الأفق تصاوير بدنه ، فألقى الغدارة ولحق به ؛ وصحت فراسته فقد كان أخاه يونس . وقال له حسن خل الخراف لئلا يلحق بنا أبوك فان بيده

المراوة . ورفض يونس صاخباً ؛ وتعاقد الاخوان بالأيدى ، وطمن قابيل هابيل وفر بالخراف . وجاء الشيخ يشتد وبيده آلة الموت التي رماها حسن ، وجثا بجانب الجريح وقال له : عجيب أمرك والله ! كيف تلق عنك سلاحك ثم تذهب الى اللص أعزل ؟ ومسح الشيخ مقلتيه وحدق فى شبح السارق ، ثم بسط الغدارة على تلك السواعد الخالدة وهم باطلاق القذيفة لولا أن قام اليه حسن وانكفأ على صدره ، فطاشت القذيفة ونجا يونس وخلف الخراف . وشفى الله الجريح ورده الى أبيه فلاحا كادحا زينة الغلمان حماة الفؤوس

واستبان الشيخ أن سارق الليل كان يونس

وجاء عيد الأضحى فنحر مصطفى كبشاً ، وجاد بأكثره على الأيامى من عجائز القرية وضعاف أهل السبيل ، ثم جلس مع ابنه حسن يأكلان شواء وثريدا

وقال الغلام لأبيه : ياأبت إنى راحل الى مصر غدا إن شاء الله ، فقد أنقصوا أجرة السفر كرامة لهذا العيد . فقال الشيخ يا بنى إنى لأجد فى سفرك هذا خفوقا بين أضالعى لا أدرى والله له علة ولا سببا

وانطوى النهار وجاء الغد ، فخرج الشيخ يشيع غلامه الى المدينة ، ودخلا المسجد الأحمدى ، وطافا حرمه مع الطائفين من أهل القرية ، وصلى الناس الظهيرة مهللين مكبرين ، ثم قاموا إلى المحطة ، أما مصطفى فأنه تناول جبين ابنه لثما وزفر أنفاساً محزونة ثم توارى

ورأى حسن فى غمار الناس أخاه يونس يرسف فى أطماره ويزوى مسكنة وفاقة ، وقد غارت عيناه بين غضون الشقاء والاغتراب

وتعانق الأخوان ، وناح يونس من كبد نادمة موجعة ، ونسى حسن جراحه السالفة وما فعل قابيل به وقال : « لا عليك يا أخى ! وابتاع تذكرتين وحمل الى أخيه قرصين من خبز السميذ»

واستقر الناس فى العربات فى حلل العيد وحولهم قدورهم وحلواهم ، وأخليت مساند القرية للشيوخ ، أما الولدان والرضع فركبوا كواهل الآباء وحجور الأمهات

وتوالى ولوج هذا الركب المنكود بأفنية العربات ، وامتد مصافهم الى السقف ، حتى لقد أسبلوا من أبدانهم سترا كثيفاً على النوافذ . وكرت العربات فى إثر القاطرة تنهب الأرض وركبها لاه برى انطواء الحقول والضياع والقرى كالصحف المصورة بيد الطفل ينشرها ويطويها

وكان ذلك قدرا محتوما وإن كان مكتوما ، فنزل بالركب المسافر موت فات الذين نوعوا أسباب الموت ، وغاب بهم الحساب عن الذين يعدون على الأيام أنواع البلاء وألوان العذاب

ذلك أن سعيرا من وقود جهنم فار من موطىء الأقدام وجوف العربات كما فار الطوفان من أغوار مدينة نوح

وما كان الركب إلا أهل الفاقة والمسكنة عبيد الضائقة المالية قد ذهب رب الحقل بما أنبتوا من قطن وبر ، ومشت الحكومة بماشيتهم فى الخراج . ولو كانت العربات مفضية الى بعضها لسارع الناس بالنجاة من باب الى باب وخلفوا النار تأكل بعضها ، ولكنها يا للحسرة الفاجعة ، كانت عليهم موصدة فى عمد ممددة

وكشفت نوافذ العربة لمن يرجو النجاة وثبا ، فتقاطر كل مقبل على الموت ليختار أحد السبيلين الى الآخرة أيهما أهون عذابا . أغمرة الاحراق ، أم دق الأعناق ؟ ورأى أهل القرى والحقول ضرام النار فى أتونها المستعر ، وهالهم ضجيج الوقود البشرى ، وجن جنونهم لغفلة السائق واندفاعه بقاطراته كعجلات الرومان الأولى نيط بها الأسرى فى أغلالهم ، وحمل الموتى الى مدينة بنها ، وعرضوا فى فناء المستشفى وأسعف الذين بهم رمق

وصاح النعاة بأهل القرى فأقبل الشيخ الفانى مصطفى مخذول الساقين ، زائغ البصر ، لا يدرى ما كتب لولده حسن ؛ ودخل فناء المستشفى فى مشيخة من قريته ، فعرف الناس موتاهم وعلا النحيب من اليتيم والأرمل والثكلى . أما مصطفى فقد دلف إلى الاشلاء حبواً وكف بصره بدمع يحرق الأديم ، وأراد أن يرى بعينه مبلغ الكارثة من فؤاده

فلمح ولده العاق يونس قائما يبكى وحول ساعديه العصائب وعلى صدره اللفائف ، وقد نشر رداءه على جسد أخيه حسن يحاول أن يخفيه عن بصر الشيخ المفجوع ، ولكن الشيخ رأى بالبصيرة ما لم يره البصر ! !

ابراهيم جبول

البريد الأدبي

أوجين أونيل الفائز بجائزة نوبل للآداب

ذكرنا فى العدد الماضى أن الأكاديمية السويدية قد منحت جائزة نوبل للطب والفسيولوجيا هذا العام إلى العلامة النمسوى الدكتور أوتو ليفى والعلامة الانكليزى السير هنرى هالت ديل

والآن نذكر أنها منحت جائزة نوبل للآداب إلى الكاتب الأمريكى الشهير أوجين أونيل Eugene O'Neill

وأوجين أنيل هو أعظم كاتب مسرحى أمريكى فى عصرنا ، اشتهرت قطعه التمثيلية فى أمريكا وفى العالم القديم معا ؛ وكان مولده فى سنة ١٨٨٨ بمدينة نيويورك من أب ممثل شهير ، ودرس أوجين فى هارفارد وقضى شباباً مضطرباً يعالج مختلف الأعمال ، وينتقل من بلد إلى بلد ، فاشتغل بحاثاً عن الذهب ، واشتغل بحاراً ، وصحفياً مخبراً ، وممثلاً ، وأحرز خبرة كبيرة فى مختلف الأعمال ؛ وأصابه السل وهو فى بدء شبابه ، فأودعه أبوه أحد المستشفيات ، وهنالك كتب عدة قطع تمثيلية من فصل واحد ؛ ولما شفى عاد إلى كلية هارفارد وتلقى دروس الكتابة المسرحية على الأستاذ باكر ؛ ومثلت بعض قطعه المسرحية فى الأقاليم فأصابت نجاحا . وفى سنة ١٩١٩ ظهرت أولى قطعه الكبيرة بعنوان « ما وراء الأفق » Beyond the Horizon ، فنالت شهرة كبيرة ؛ وفى سنة ١٩٢١ ظهرت « الأمبراطور جونس » Emp · Jones فزادت فى شهرته ؛ وفى سنة ١٩٢٢ ظهرت « أنا كرستى » AnnaChristie ، ومن أشهر قطعه رواية « القرد الغزير الشعر » The Hairy Ape وقد مثلت بنجاح عظيم فى نيويورك ولندن . وظهرت بعد ذلك عدة قطع اشتهرت كلها فى العالمين الجديد والقديم ومثلت فى جميع العواصم الكبرى ، ومنها : Lazanus laughed (١٩٢٧) و Strange Interlude (١٩٢٨) .

وقد امتازت روايات أونيل بأنها تعرض المحادثات النفسية للأشخاص على المسرح فى ثوب جديد ساحر ، واشتهر بعضها بالتطويل حتى إنها لتبلغ تسعة فصول ، وتستغرق فى تمثيلها خمس ساعات ، ومع ذلك فقد اشتهرت بقوتها وعميق تأثيرها . وقد تقلب أونيل فى الكتابة بين عدة مذاهب «الحقيقى» و«التعبيرى» والرمزى والنفسى ؛ وهو لا يعنى بشىء من الآراء والمذاهب السياسية والاقتصادية ، وكل ما يعنيه هو الفكرة الانسانية ، وما تعرضه فى الحياة الواقعة ؛ ومعظم الخواتم فى قطعه تعرض الخيبة والفشل ، ويهزم الأشخاص لا بخطئهم أو تقصيرهم ولكن بفعل الحظ والمصادفة ، وهى مؤثرات يبغضها أونيل ويرى أنه لا حق لها أن تؤثر فى حياة الفرد

جائزة نوبل للعلوم الطبيعية والكيمياء

ومنحت جائزة نوبل للعلوم الطبيعية للعلامة النمسوى الدكتور هيس والعلامة الأمريكى الدكتور هندرسون مناصفة بينهما ، ومنحت جائزة نوبل للكيمياء للعلامة الألمانى الدكتور هيلاندى دربى من معهد برلين

وفاة شاعر مجرى كبير

نعت الينا أنباء بودابست الأخيرة الكاتب والشاعر المجرى الكبير ديشو كوشتولانى D. Koszolanyi ، توفى فى الثالث من نوفبر بمنزله فى بودابست بشارع تابور بعد مرض طويل . وكان مولده بقرية زباتكا من أعمال جنوب المجر ؛ وتلقى دراسته بجامعة بودابست ؛ واشتغل بادىء ذى بدء بالصحافة ؛ ثم كتب بعض القصص ونظم الشعر ؛ وترجم إلى المجرية عدة قطع خالدة من شكسبير ، وموليير ، وموباسان ، وڤلده ، وغيرهم من الشعراء المحدثين من كل قطر وكل لغة . ومن أشهر مؤلفاته « الشاعر الدموى » وهى قصة رائعة عن عصر نيرون ، وقد ترجمت الى الانكليزية (The bloody Poet) ؛ وهو شاعر مجدد بمعنى الكلمة وقد استطاع أن يصوغ أعقد المسائل المعقدة المحدثة فى أجمل

الأساليب وأرقها ، ومن نظمه المجموعات الآتية : « بين جدران أربعة » (١٩٠٧) « أنين طفل » (١٩١٠) « السحر » (١٩١٢) « أخى » (١٩١٥) « بوبى » (١٩١٦) « الخبز والنبيذ » (١٩٢٠) « أنين رجل محزون » (١٩٢١) العارية (١٩٢٧) وغيرها ، وقد ترجمت معظمها الى الانكليزية

فى الأكاديمية الفرنسية

فى الأنباء الأخيرة أن ثلاثة أعضاء جدد قد انتخبوا للجلوس فى الأكاديمية الفرنسية والانتظام فى سلك الخالدين ، وهم الأميرال لاكاز وقد انتخب مكان السياسى الكبير جول كامبون ، والمونسنيور جرانت وقد انتخب مكان المؤرخ الكبير بييردى نولهاك ، والمسيو جاك دى لاكرايتل وقد انتخب مكان الشاعر والقصصى الكبير هنرى دى رينيه

وينتمى كل من الأعضاء الجدد إلى طراز خاص من التفكير ، فالأميرال لاكاز من رجال الحرب ، ولكنه كاتب وخطيب كبير ؛ وهو اليوم فى الخامسة والسبعين من عمره ، وكان وزيراً للبحرية ، وقائداً لأسطول الغواصات أيام الحرب الكبرى ؛ ومن تقاليد الأكاديمية أن يمثل فيها دائماً الى جانب أبطال الأدب ، أبطال العسكرية البارزين فى التفكير والثقافة مثل الماريشال فوش الذى كان من أعضائها

وأما المونسنيور جرانت ، فهو على رغم كونه من رجال الدين ، كاتب ومؤرخ كبير ؛ وهو دكتور فى الآداب ، وقد انتخب منذ سنة ١٩٢٨ لمنصب الأسقف ، وكان من قبل مديراً للمعهد الكاثوليكى فى ليل ؛ وله ثبت حافل من الكتب والمصنفات المختلفة نذكر منها : « عيوب التربية المنزلية الحالية » « بوسويه فى متز » « تطور الشعائر والعبادات فى باريس منذ الثورة إلى عصر الكونكوردا » « شهداء سبتمبر سنة ١٧٩٢ » « رسالة إلى المشرق » وكثير غيرها ، وهو خطيب مفوه ومحاضر بارع ، وقد اشتهر بمحاضراته الدينية والاجتماعية التى يلقيها من آن لآخر فى العواصم الأوربية المختلفة

وأما جاك دى لاكراتيل فهو كاتب وقصصى كبير ، وقد ولد بمصر ونشأ بها ؛ وكان بمصر فى العام الماضى وألقى بعض محاضراته فى القاهرة والاسكندرية ؛ وهو من أساتذة الشباب فى القصة المعاصرة ، بيد أنه يميل إلى النزعة القديمة ، وينتمى بنوع خاص إلى مدرسة الأب « بريفوست » ؛ ويؤثر الاستعراض الهادئ للأحداث والفواجع ، وأسلوبه حاد ولكنه واضح . ومن أشهر قصصه « الحب الزوجى » و « الأسقف العالية »

أنباء الزمن فى أخبار اليمن

أصدرت « مجلة الأسلام » Der Islam الألمانية فيما تصدره من دراسات لتاريخ الشرق الاسلامى وحضارته القسم الأول من مؤلف هام عن تاريخ اليمن ، هو « أنباء الزمن فى أخبار اليمن » ليحيى بن الحسين بن المؤيد اليمنى . وقد وقف على طبعه وتصحيحه والتعليق عليه ومهد له فى مقدمة طويلة بالألمانية الدكتور محمد عبد الله ماضى عضو بعثة الامام محمد عبده ، ونال بتقديمه إجازة الدكتوراه فى مايو الماضى . وهو يطبع لأول مرة عن مخطوط قديم ، ويتناول تاريخ اليمن فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع من الهجرة من سنة ٢٨٠ إلى سنة ٣٣٢ هـ . وقد أهدى الناشر ثمرة مجهوده إلى روح المرحوم الامام محمد عبده اعترافاً بفضله ومآثره ؛ وسنعود إلى دراسة هذا السفر فى فرصة أخرى

فكرة العصبية عند ابن خلدون

أصدرت مجلة «الاسلام» الألمانية كذلك فى مطبوع خاص رسالة بالألمانية عن « فكرة العصبية فى مقدمة ابن خلدون »
« Der Asabija Begriff in der Muqaddima Ibn Halqun »
وهى الرسالة التى تقدم بها صديقنا الدكتور طاهر خميرى مدرس اللغة العربية بكلية همبورج الى نيل إجازة الدكتوراه . ويشرح المؤلف نظرية الفيلسوف ابن خلدون فى « العصبية » ، وأثرها فى القبيلة وتكوين الملك بطريقة نقدية مقارنة ، وسنعود أيضاً الى استعراضها ودراستها فى فرصة أخرى



العالم المسرحي والسينمائي

التأليف والترجمة للمسرح

حديث للأستاذ زكي طليمات

لناقد « الرسالة » الفني

قبلت الفرقة القومية استقالة الأستاذ طليمات ، كما ألغت وزارة المعارف انتدابه للعمل في هـذه الفرقة ، فحرم المسرح في مصر من جهود شاب نشط مثقف أرسلته الحكومة الى فرنسا ليدرس التمثيل والاخراج كي تنتفع به في النهوض بهذا الفن

ولسنا ندري حقيقة الدوافع التي حدت بالأستاذ طليمات الى تقديم استقالته ، ولكننا علمنا أنه ضمنها كتابه الذي رفعه الى الأستاذ الكبير محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف ، ولذلك قصدت الى الأستاذ طليمات وسألته أن يطلعني على صورة من هذا الكتاب ، فأبى ورفض أن يدلي بأية تفاصيل ، ولكنه أمام الالحاح صرح بما يلي :

« لم أستقل لامن أجل زيادة مرتب أوطلب مركز أوخلافه ، وإنما استقلت لأنني غير قادر على تقوية ضعف أرى الفرقة تنساق اليه يوماً بعد يوم

كنت مغلول اليدين مشدوداً الى خشبة تعذيب ، أرى وأتألم وأصيح ولا يستمع لي أحد ، وهذا عذاب لا يطاق

فاستقالتي إنما هي لأراحة ضميري »

ولم يرض الأستاذ طليمات أن يزيد كلمة على هذا التصريح بل جعل ينتقل بالحديث من موضوع الى آخر حتى عرض لنا موضوع التأليف والترجمة للمسرح فوجهت اليه السؤال التالي :

ما رأيك في الروايات المصرية التي أخرجتها أو اطلعت عليها ؟

فأجاب « رأيي أن المسرحية المصرية لم تستكمل بعد مقومات نضوجها ، وما برحت تفتقر إلى الطابع الأصيل الذي يميزها عن الرواية الغربية ، إذ لا يخفى عليك أن الجمهور المصري لم يتعرف الى المسرحية في اللسان العربي إلا منذ سبعين عاما ، والأدب القديم خـلو منها على الرغم مما يذخر به من المخلفات الممتعة في مختلف العلوم والفنون

أدبنا العربي الحديث يفتقر الى الوراثة المهذبة في فن صياغة القطعة المسرحية . وليست له تقاليد فيها ، فنحن ما برحنا في دور النقل والتقليد والاستساغة ، نأخذ عن المسرح الغربي في صياغة مسرحياتنا وننحو نحوه ، ولابد لنا أن نجتاز هذه المرحلة قبل أن يستقر وضع أصيل للمسرحية المصرية . غير أن هذا لا يحجزني عن التصريح بأن بيننا نفرا من المؤلفين المصريين قد وفقوا كثيرا في تأليف روايات متينة البناء قوية الحبكة جاء حوارها قويا في سلاسة وسهولة . فهنالك أمثال : (ابراهيم رمزي) ، (عباس علام) ، (المرحوم محمد تيمور) يأتون في مقدمة هذا النفر . وجاء أخيراً (توفيق الحكيم) فأضاف ذخيرة جديدة إلى محصولنا في آداب المسرحية المصرية

وأهم ما آخذه على أكثرية المؤلفين المصريين أنهم لا يحسنون العدة للتأليف ، فتحصيلهم سطحي هزيل ، ولذلك لم يكن غريبا يكون نتاجهم فجاً . وأعرف ممن يكتبون للمسرح من لم يقرأ رواية أجنبية واحدة ، فاذا سألته عن شغفه بالتأليف أجابك في زهو أنه مواظب على حضور التمثيل في فرقة فلان أو فلانة

وأبين مواطن الضعف في المسرحية المصرية جهل بصياغة الرواية وحبكة حوادثها في منطق سليم يستثير اهتمام الجمهور في غير افتعال أو خروج على المعقول ، كذلك ميل إلى معالجة الموضوع بطريقة سطحية يُهدر فيها جانب الشخصيات في الرواية فيبدون نحفاء مهازيل من حيث التحليل النفسي . أما الأسلوب الذي يكتبون به فتعلوه مسحة من التكلف والنزوع إلى الاتيان بمهجور اللفظ والمبالغة في سرد المترادفات والجود بالألفاظ في إسراف معيب . فاذا خلا من هذه العيوب في بعض الأحايين ، فلكي يقع في قص الحديث والسرد . وإذا قلت إن قليلاً ، وقليلا جداً من مؤلفينا يحسنون جدل الحوار لما قررت غير الواقع .

وأعتقد أنه يجب أن يمر زمن طويل حتى يحسن صناعة تأليف الرواية المسرحية . والعلة فى هذا ترجع إلى أننا نعمل فى جديد دخيل فى آدابنا

فقلت له : « وما رأيك فى الروايات التى تترجم للمسرح المصرى . ومن هو أحب المؤلفين إليك ؟ » وقد أجابنى قائلاً « أكثر هذه الترجمات من هزيل الروايات الغربية ذات الصبغة القاتمة Melodrame أو ذات المواقف العنيفة المفتعلة . وقد تهافت أصحاب الفرق التمثيلية على نقل هذا النوع من الروايات لسهولة اخراجه على المسرح ، ولأن نقله إلى العربية لا يحتاج إلى الكثير من العناء الذى يتطلب زيادة الأجر فى نفقات الترجمة . هذا فضلاً عن أن هذه الروايات تستهوى الأكثرية الغالبة من الجمهور ، وهى أكثرية ساذجة التفكير لا تميل إلى إعمال الروية فيما يقدم إليها على المسرح . ولا يخفى عليك أن الجمهور المصرى لم يتعود إشغال الفكر فيما يراه فى دور اللهو ، ولم يطالعه فن التمثيل باللسان العربى إلا منذ سبعين عاماً ، وفن التمثيل ظاهره لهو وباطنه تهذيب وتثقيف

ومن العجيب أن كثيراً من روايات « موليير » وبعض روايات كورنى وراسين ، وهم من عباقرة المؤلفين المسرحيين قد نقلت إلى العربية فى أوائل عهد مصر بالتمثيل ولكنه كان نقلا مشوهاً مسخت فيه معالم تلك الروائع الفنية فخرج بعضها يتعثر فى أسلوب من العامية والبعض الآخر يتنكر فى أسلوب ركيك محشو بالسجع مطبوع بالتعابير (الكليشيه) التى مج استعمالها وأنكرتها الآذان

وتقدمت عملية النقل فى السنوات الأخيرة ، وتنبهت وزارة المعارف أخيراً إلى ضرورة تغذية المسرح المصرى ببعض من نفائس الأدب المسرحى فترجمت عدداً منها ترجمة أنموذجية ، وقامت بطبعها متوخية فى عملها هذا أن يطالع المتأدبون على أنفس الذخائر الفنية فى المسرح الغربى ، وأن يتأثر بطابعها من يعالجون التأليف المسرحى فى مصر . ولاغنى لنا عن المسرح الغربى فى هذه المرحلة ، مرحلة الاستساغة ، ولكن هذا يجب ألا يصرفنا بأى حال عن العناية بالرواية المصرية وتشجيع مؤلفيها . ويجب ألا يكون قياسنا فى الحكم عليها مايعمر رؤوسنا من آثار نوابغ المسرح الغربى ، فنحن ما برحنا فى دور المحاولة ، محاولة جعل الرواية المسرحية شعبة من أدبنا المصرى الحديث

وألاحظ أن أكثر مترجماتنا مأخوذ من الأدب الفرنسى ، بل يكاد يكون مسرحنا (لاتينياً) فى نزعته ، وما هذا بعجيب فثقافتنا لاتينية منذ القدم كما أن مزاجنا يكاد يتشابه بالمزاج اللاتينى ، وذلك بحكم أننا من أبناء شواطئ البحر الأبيض المتوسط ومصر هى الضفة المقابلة لايطاليا

ولكن ما أحوجنا إلى أن يتعرف الجمهور والمتأدبون إلى آثار الأدب الجرمانى وأدب الشمال والأدب الأمريكى الشاب الذى هو خلاصة آداب مجتمعة ، فمسرحنا لم يتعرف بعد إلى « أبسن » النرويجى و(استرنبرج) السويدى و(هوبتمان) الألمانى و(أوجين أونيل) الأمريكى

وأحب المؤلفين المسرحيين إلى هم (موليير) الفرنسى ، و(أبسن) النرويجى ، و (شاكسبير) الانجليزى . ولى ولع خاص بمطالعة أعمال موليير لأنها علمتنى الاعتدال (La mésure) ، وهى صفة أقر بافتقارى اليها ، وطالما كان حظى الصغير منها سببا فى أخطاء أتيتها فى حياتى ، ولأن فى موليير تجتمع كاملة شخصيات الشاعر الانسانى ، والكاتب المسرحى والممثل ، فهو رجل مسرح بحق

وتهزنى مآسى شاكسبير بروعتها ، وفيض عواطفها ، وهى مآس عاطفيه تركزت فيها الانسانية بأسرها

أما (إبسن) فهو أبو المسرح الحديث وأستاذ أساتذة نوابغ المسرح الغربى ، وهو الطود الشامخ وغيره الكثبان الرملية والتلال . وفى ضباب مآسيه غموض الحياة وظمأ المعرفة الذى لاتنقع علته ، وفى نضال شخصياته أروع مآسى الحياة الفكرية »

قلت له وما رأيك فى استقدام الخبير الفنى الذى تنوى وزارة المعارف استقدامه من الخارج ؟ فأجاب « سبق أن صرحت برأيى فى ذلك ، وهأنذا أكرر ما قلته : وهو أن فى استقدامه ما قد يبصرنا بما خفى علينا الأخذ به من وسائل ترقية المسرح المصرى وإذاعة آثاره ؛ وأرجو أن توفق الوزارة فى اختيار أحد الرجال البارزين فى المسرح الأوربى ؛ ولعل فى استقدامه واضطلاعه بشؤون الفرقة القومية ما يقضى على أسباب الفوضى المنتشرة فى هذه المنشأة الجديدة ، وهو الأمر الذى عجزت عنه وأعيانى أمره »

يوسف تادرس